مَرافئ العشق

مرافئ العشق

سفيان البراق

قصص

ISBN 9789773120146

© Willows House 2021

الطبعـة الأولـى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

سُفيان البـرّاق

مَرافئ العشق

قـصص

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

«إلى الَّذيـن يحبُّـون الحيـاة، إلى الَّذيـن يلهثـونَ وراء السـعادة، إلى الَّذيـن يحتفلـون بأعيـاد ميلادهـم، إلى الَّذيـن يقولـون إنَّ الأثريـاء لا ينعمـون بلـذَّة النـوم الهـانئ، إلى أولئـك الحربائيـين، إلى الَّذيـن لا يُجيـدون طقـوس الحـبِّ ولا يتقنـون فـنَّ قـراءة خبايـا قلـب الأنـثى والعـزف عـلى أوتـارهِ بشـغف. أكرهكـم بالتسـاوي والعـدل».

«الأصعـبُ ليـس أنْ يمـوتَ المـرء. بـل أنْ يمـوت الَّذيـن حولـه كلُّهـم ويبقـى هـو حيًّـا».

عبد الرَّحمن مُنيف

في هجاءِ العِشق

العشـقُ حكايـاتٌ سرديَّـة. العشـقُ فـرحٌ ضـاجٌّ. العشـقُ نـصٌّ نـثريٌّ مُرسـلٌ لا سـجع فيـه ولا اسـتعارة ولا زُخـرف، وبريـدهُ مركـونٌ عـلى قارعـة الطريـق كقُمامـةٍ لـم تجـد مـن يحملهـا.

يبـدأُ يَوْمُـك مـن يَوْمِـك، مـن نقطـةٍ مـا في المجهـول لا تعلمُهـا. مـن فـرطِ بداهتـهِ لا تسـألُ أكان الزمـنُ موجـةَ مـدٍّ تَنْحَـسِرُ، فالأشـياءُ أمامـك واضحـة؛ كالفصـولِ في سـيرةِ الطبيعـة، والنَّواميـسُ مرتَّبـة عـلى مقاديـر المُطلـق، وإلى غايتِهـا تمـضي كما يمـضي المسـافرُ إلى هـدفٍ ينظـرهُ. العِشـق لا يُلقـي التحيـة عـلى ضريحـهِ لأنَّ إقامتـهُ مؤقتـة، وأحفـادهُ يتكاثـرون، هـو نهايـةُ بدايـةٍ لا يُصدِّقهـا المتصوفـة، ولا يدركُهـا كُتَّـابُ التاريـخ. فمـن ركـب بحـره، وتلاعبـت بـه أمواجـه كان إلى الهـلاك أقـرب منـه إلى السَّـلامة.

لكلِّ ألمٍ علَّة

رغـم أنَّ الجميـع تقريبًـا كان يَسـتبطِئ وصـولَ سـيارة الإسـعاف، ويسـتنكرُ محتـدًّا هـذا التباطـؤ، فقـد كنـتَ أنـتَ أيضًـا تتأمَّلهـم صامِتًـا، لا مُسـتنكِرًا ولا سـاخِطًا، ورِجلـك مَمـدودةٌ أمامـك، لا تقـوى عـلى تحريكهـا، لأنَّـك كنـت تـدري سـالفًا أنَّ لا سـيارة الإسعاف ولا الطبيـب وعدَّتـه سـيحضرون في الوقـت المناسـب. المهـم أنَّـك كنـت تحـدِسُ بفطنتِـكَ الـتي فطرتـك عليهـا، أنَّ حياتـك توقَّفـت هنـا، تمامًـا في تلـك اللَّحظـة الـتي صدمتـك فيهـا تلـك الشـاحنة المخيفـة. كنـتَ تحـدس بقـدرٍ هائـل مـن الألـم الممـض، أنَّـك لـنْ تسـير كما كنـت. حـتى لـو كُتِـبَ لـك العيـشُ طويـلًا وسِرت فـوق الأرض فلـن يتـأتى لـك ذلـك قبـل سـنة، بعـكَّازة أو عكَّازتـين. المهـم أنَّـك لـن تعـودَ ذلـك الحصـان الـذي كنتـهُ. تفيـقُ في الرابعـةِ صباحًـا، وتسـعى في طلـبِ الـرزق،

فتملأ سوق الجملة بجريك وصراخك، ومشاكستِك، وتملأُ كيسكَ مما جادوا به من خضرٍ وفواكه، وجيبك بما تكرَّموا عليك به، قبلَ أنْ تعودَ في منتصفِ النهار إلى البيتِ منهكًا. أخيرًا حضرت سيارةُ الإسعاف، تصرخُ وتُولولُ، كما لو كنت أحد أبنائها أو إخوتها، فأفسحَ لها المُتجمهرون الطريق، فمنهم من يتأسف ومنهم من يَستنكِر.

وحين وقفَ المسعفون على رأسك، يَتأهبون لحملك، نظرتَ إلى أحذيتهم، وددت لو أنَّهم يتركونك مُمددًا كما كنت. كنت قد بدأت تستأنِسُ بالأرض حينَ صدمتك تلك الشاحنة العوراء، صرختَ من الألم كوحشٍ كاسِر اخترقهُ سهمٌ مسموم. صرختَ ثم صمتَّ متمددًا كميِّت، والآن يقتلعونكَ منها، كما اقتلعتك حادثةُ اليوم من جحيمِ يومك. حملوك إلى السيارة الصفراء، ذات العويل البغيض، ووضعوك في قلبها وأنتَ صامت، ساروا بك وأنتَ صامت. وحتى حينَ استفسروا عن هُويَّتك، اكتفيت بالإشارة بسبَّابتك إلى حافظةِ أوراقك التي تضعُها عادةً في جيب سروالك، تمامًا فوقَ المؤخرة. فلم يكادوا يُخرجوها من جيبك حتى كادت تُزهقَ روحك من الألم دون أنْ تنبس. فبِالله عليك: أيُّ بشرٍ أنتْ، وأيُّ كائنٍ أنتْ. أنتَ جدارٌ من أسمنت مُسلَّح بيدينِ ورجلين

ورأس. اليـوم، اليـوم ميـلادُك الجديـد.

اليـوم تبـدأُ حياتُـك الجديـدة. آهٍ. لـو أنَّ هيـكلَ المـوت ذاك أمهلـك بعـض الوقـت. لـو أنَّـه صدمَـكَ بعـدَ بِضْـعِ سـنين، ثـلاث أو أربـع عـلى الأقـل، لكنـتَ قـدْ أمَّنـت لابنتـك البكـر قُوتَهـا حـتى تسـتطيعَ العمـل، وتُعينـك عـلى إمـداد جيشـك، فيـه مـن يمـشي عـلى اثنتين، وفيـه مـن يمـشي عـلى أربـع. جزاكَ الله شرَّ الجـزاء أيُّهـا السـائقُ المَلعـون. لقـد دسـت عـلى قلـبٍ يَضُـخُّ الدمـاء في أجسـادٍ كثـيرة، لقـد خنقـت بيديـك أرواحًـا كثـيرة. تحـاول أنْ تتخيلهـم الآن: هـا هـي أمهـم قـد أخرجـت أغطيتهـم وفراشـهم لتنشُرهـا تحـت أشـعة الشَّـمس، وهـا هـم قـد خرجـوا للمدرسـة أو الكُتَّـاب ليدرسـوا، بعـد أنْ تناولـوا إفطارهـم. إنهـم يحسـبون أنـك في العمـل؛ تحمـلُ السلاسـل الثقيلـة، وتَنقلهـا مـن الشـاحنات إلى أماكـن البيـع. في حـين أنَّـك مكـوَّم كالهَـمِّ الثقيـل الـذي يعتـصِرُ قلبـك الآن، بإحـدى ردهـات قسـم المُسـتعجلات بمستشـفى لـم تعرِفْـهُ مـن قبـل.

وضعـوك، رَمـوك، لا فـرق، المهـم أنَّهـم نسـوك، سـمحوا فيـك. عـلى الآلام الـتي تنهـشُ جانبـك الآن، أنْ تسـتوعِبَ عمليـةَ مجـيء الطبيـب في مستشـفياتِ المخـزن. إن الطبيـب هنـا، هـو كُلُّ شيء، رغـم أنَّـه لـنْ يفعـلَ شـيئًا. فهـو لـم يـأتِ إلَّا بعـد أنْ

جاءت زوجتك وابنتك الكُبرى، وجلستا بعد أن بكيتا ما شاءَ لهما سائقُ الشاحنة أنْ تبكيا. ثم دخل مكتبهُ ومكثَ فيه حتى خُيِّلَ إليك أنه لم يأتِ بعد، ثم ألقى أوامِرهُ بتهيئتك وتخديرك، إلى أنْ وجدتَ نفسكَ ببيتكَ ممددًا، لا تَقوى على الحركة، والبيتُ من حولك مملوءٌ عن آخره، نسوةٌ هنا ورجالٌ هناك، والصبية الصغار يذرعونهُ جيئةً وذهابًا، ويملأونه صراخًا وعويلًا. لكنك تنظرُ إلى أبنائك فقط، فأنتَ من اليوم فصاعِدًا واحدٌ منهم، وعليهم أنْ يتعودوا رؤيتك صباحًا بجانبهم، كسيرًا مقهورًا؛ فأنتَ الآن تملكُ جسدك وروحك، ووقت العالم. أنتَ من اليوم في غنى عن الإسراع في فعلِ شيء وأيِّ شيء.

أنتَ الآن آلةٌ مُعطلة، رُميت بعد طول وسوءِ استخدام. أنتَ الآن، بكبريائك وأنفتِك، تطلبُ من صغيرك بخوفٍ واحترام أن يُساعدك في حلاقةِ ذقنك، بأن يقبض أمامك المرآة الصغيرة التي في بيتك. أمَّا حين تريدُ أن تقضي حاجتك، فتلك مأساة أخرى يعلمُ الله وحدهُ كم أحسست معها بالضُعف والخذلان، وما أكثر مآسيك. كنت تقول لابنك: ابتسم للحياة تبتسم لكَ. هأنتَ قد ابتسمت لها حتى أغاظها بياضُ أسنانك فرمتك بحجارةٍ هشَّمت أسنانك.

الصَّرخة الأخيرة

القريـةُ بعيـدة، الجـبن المخـثر في جنبـاتِ الكَهـفِ الدهلـيزي، ضـوءُ الشـمعدان في الكنيسـةِ المهجـورة، الطفـلُ الـذي مزقتـهُ الأسـلاك، رمتـهُ خلـفَ الأسـوارِ وحـين رأى شـمس الوطـن الآخـر، لملَـمَ جراحـهُ.

قال لي مرةً وهو يُطِلُّ من النافذة المشرعة على البحر:

ـ كنت أحسبُ جرحي أعمقَ وأقسى من جرحِ هذا الوطن.

في الأيـامِ اختلطـت لديـه الأشـياء، ولـم يعـد للزمـن طولـهُ الاعتيـادي بـلْ أصبـحَ زمنًـا معجونًـا بـالآلامِ والتـذكارات. لـم يعـد البارحـة بعدهـا في الزمـنِ وعمقهـا المُتـلاشي. كان «أنجلـو» يُنـادي أمـه بأسـماءٍ كثـيرة كان يُرددهـا. قـال لي ذات مـرة:

ـ تعـال. نَـمْ عنـدي الليلـة، سـيأتي بعـض الـزُّوار، سـتأتي خالـتي الـتي مـاتَ زوجهـا في الحـرب.

نِمْتُ حتى الصباح، كنتُ أعرف أنَّهُ كان يزور الوطن في مَنفاه.

في ليلـةٍ عاصفـة، صرخَ في عُمـقِ الظـلام. الذئـابُ تعـوي في الخـارج، أقفـل البـاب، أشـعل النـار، ووضَـعَ البندقيـة عـلى مقربـةٍ مـن ملمـسِ يديـه، فالذئـابُ موجـودةٌ في كلِّ مـكان.

«أنجلـو» مـات لأنَّـه لـمْ يعـرف كيـف يُـداوي جرحـه، أنجلـو مـات لأنَّ الحـرب قتلتـه، لقـد ظـلَّ الوطـن يحفـرُ فيه كلَّ أشـكالِ التـلاشي حـتى تهـاوى كحائـطٍ قديـم.

تـركَ الوطـن، ووجـد وطنًـا عاريًـا في أعـينِ الأطفـال. مـا تبقـى مـن كلماتِـهِ، تركـتُ المـوتَ هنـاك ووجدتـهُ هنـا، حكايـةُ وطـن مـات ووطـنٍ يحتـضر. أسـمعُ طلقـاتِ الرصـاص، أركـبُ السـيارة، أترجـل عنهـا. عندمـا لمحـت عينـاي المواجهـات بـين الأطفـال والكبـار، أدركـت حينهـا أنَّ العالـم أصابتـهُ اللَّعنـة.

ذات مسـاءٍ خريفـي، كانـت الطيـور تعـودُ إلى أعشاشـها المَكشـوفة، والعلامـات الملفوفـات في الحايـك يهرولـن صـوب منازلهـنَّ. كانـت رائحـة البحـر تعـمُّ المـكان، لكـن صخـب اصطـدام أمواجـه بالواجهـة الأماميـة للميناء الصغـير سرعـان

مـا تـلاشى شـيئًا فشـيئًا. كان أنجلـو يـرى كلَّ هـذا وفي عينيـه غيمـةٌ مـن الحـزنِ، كادت تُمطِـرُ أو بالـكادِ أقلقـت صفـاءَ عينيـه، أشـعلَ السـيجارة وحـاولَ أنْ يـداري حزنـهُ، التفـتَ إليَّ مـدركًا تطلعـي إليـه وتفرُّسـاتي الـتي كادت تغـوصُ داخلـه، كان يريـدُ أنْ يوفـر عـليَّ كل هـذا العنـاءِ.

مـا بقـي مـن الوطـنِ سـوى ذكريـاتٍ شـاحبة، ذكريـاتُ طفـل، أحيانًـا كان يـزورني ويضـعُ بـين يـدي باقـةَ وردٍ بـريٍّ ويمـضي، أعـرفُ أنَّ مـن لا وطـنَ لـه لا فـرحَ لـه. كلَّمـا تذكـرتُ تلـك الليـالي الطفوليـة في القريـة، أحسسـتُ بالـدفءِ يـسري في جسـدي، وبالامتـلاءِ يغمـرني، فأحِـسُّ بـأنَّ لي جـذورًا ستسـتطيلُ لـكي تـشربَ مـن نبـعِ الوطـن. فالزمـن الـذي ولَّى، والسـنين الـتي طُوِيَـتْ صفحاتهـا، ولَّـدا بداخـلي شـيئًا كالمـوتِ ينـشرُ أطيافـهُ عـلى حبـالِ العُزلـة.

مـن حُجرتـه الصغـيرة كنـا نسـمعُ هديـرَ البحـر، رائحتـهُ تملأ كلَّ جنبـاتِ الحجـرة، الصـورة المعلَّقـة لـ «فيرمر».

كل مـا اسـتطاعَ أنْ يفعلـه «فيرمـر» هـو تخليـدُ الجمـال، أتـرى الصـورة؟ إنَّهـا لا تحمـلُ جمـالًا خارقًـا، لكـن روعتهـا تكمـنُ في اليـدِ الـتي اسـتطاعت أنْ تجعـل ممـا هـو عـادي شـكلًا للخلـود.

إنَّ الرسم كالكتابة، إنه تجسيدٌ لما هو مرئيٌّ، بحيثُ يصبحُ شكلًا مزدوجًا، شكلًا جديدًا للابتكار والخلقِ، إنَّه الإبداع في أبهى تجلياته.

أنجلو لم يكتب، لم يدوِّن مذكراتهِ، كان يحلمُ بشيءٍ واحد، أن يعودَ إلى الوطن، أنْ تتشابكَ يداهُ بأغصانِ شجرِ الدُفلى، الذي كان يحيطُ بمدخلِ البيت الذي كان يسكنهُ طفلًا في القرية.

مات أنجلو هنا بعيدًا، منفيًّا، ما تبقى غير غيمةٍ من سفر، ووِصايةِ قنديلٍ يحتضر.

كان يخافُ أنْ يموتَ وحيدًا، فقيرًا، مُعدمًا، وكأنَّ هذه الأشياء أبت إلَّا أنْ تقع. أنجلو نام هادئًا تلك الليلة، وفي الصباح سألني عن اليوم، قلتُ له إنَّه يوم الأحد، ابتسم، ربَّما تراقصت في عينيه صورة الكنيسةِ المهجورة والناقوس المتعب، الذي كانت تتردد دقاتهُ في فضاءِ القرية، طلبَ مني أنْ أضع خلفهُ وسادة زائدة، كي يرفعَ ظهرهُ بعض الشيء، حسِبتُ أنَّ حالتهُ قد تحسَّنت وأنَّه قد ابتعد عن مشارفِ الموت.

قمتُ كي أعدَّ له القهوة في فنجانٍ كبير، حين عدتُ وجدتهُ

يبـكي كطفـل، وضعـتُ الفنجـان جانبًـا، وجلسـتُ أربـتُ كتفـهِ لعلـه يهـدأُ وتـزولُ عنـه غشـاوةُ الحـزنِ تلـك.

أحسسـتُ للحظـات وهـو يلملـمُ حزنـهُ ويمسـحُ دموعـه بعمـقِ المأسـاة، أخـذ الفنجـان ورشـفَ جرعـةً واحـدة، ومـا كاد يضـعُ الفنجـان حـتى ارتجفـت يـداهُ، التفـت بعنـفٍ نحـو النافـدة الـتي تطـلُّ عـلى البحـر، تسـاءلتُ مـن أيـن أتتـهُ تلـك القـوة في الالتفـات وهـو الـذي وَهَـنَ جسـدهُ إلى أبعـدِ الحـدود، اقتربـتُ منـه، ناديـتُ، أنجلـو، أنجلـو...

لـم تكـن تلـك إلَّا صحـوةَ المـوتِ، بـكى رحيلـهُ قبـل الأوانِ، لـم يُشـيَّع جسـدهُ إلَّا القِلـة مـن المهمشـين والسـكارى الذيـن كان يبادلهـم المجامـلات حـين يُصادفهـم في الحانـةِ. حـين عـدتُ إلى الفنـدق وجـدتُ أنَّ كل الأثـاث قـد علـتْ فيـه أيـادٍ خفيـة، لـم يَبـقَ شيء إلَّا تلـك الصـورة المعلَّقـة عـلى الجـدار، مـا زالـت تنظـرُ إلينـا بتلـك النظـرة، سـألتُ المسـؤول في الفنـدق فأخـبرني أنَّ أُناسًـا قـد أتـوا وحملـوا أغراضـهُ وقالـوا لـه أنْ ينـسى كلَّ شيء. نزلـتُ الـدرج وحـدي، سـألتُ نفـسي: أحقًّـا أنجلـو لـم يَكتُـب مُذكراتِـهِ.

بقايا أحزان

وقفتُ في ساحةٍ فسيحة، على جنباتها أشجارُ الرُّمان بحباتها الفتيَّة، وشجيرات يانعة لا أعرف صنفها. الخوذة في يدي اليسرى، ويدي اليُمنى تحملُ هاتفي الَّذي ينتظرُ مكالمتها بكثيرٍ من الشَّوق؛ شوقٌ يشوبه الترقُّب. من عادتها التأخر عن المواعيد، ولا أتوانى في توبيخها، لكنَّها تتحجَّجُ بتعطُّل الحافلة أو أنَّها تتلذَّذ بتركي أتحرَّق حبًّا وشوقًا في انتظارها حتى أدرك معنى العشق. بدت لي المدينة ذاك المساء قد شاخت وذبلت، ولم تعد مدينة الحكَّائين، كما عهدناها، تبوح بأسرار التاريخ، ولم تحافظ سوى على أسوارها الطينية المتراصة، التي نخرتها مياه الأمطار، وأبوابها العالية. كما ظلَّ سكانها يحتفظون بتفرُّدهم في لكنتهم، إذ يلوون ذراع

الكلمات والعبارات وينطقونها بطريقة تجعلهم متفرِّدين في جلِّ أنحاء البلاد.

حسن بجانبي، بلحيةٍ كثة وشارب محفوف، يرمي الفتيات بغمزات جذَّابة، دون خوفٍ من عقابيل ذلك، إذ من الممكن في أي وقت أن تنطلي عليه تهمة التحرُّش في ساحةٍ يحجُّ إليها أبناء المدينة من كلِّ حدب. تأخرت كثيرًا. أتَّصل ولا ترُد. سَعَّرت، بتأخرها ذاك، شعورَ القلق والخوف. خاطرتُ بدراجتي النَّارية الَّتي لا تتوفر على تأمين يقيني شرَّ الحوادث ويصدُّ كلمات شرطيٍّ يدَّعي النزاهة، في حين أنه في الحقيقة، يحاصرني بعباراته التي تخفي نواياه المضمرة، متمنيًا ورقة نقدية يضيفها إلى أجرته الَّتي تنتهي قبل الأيام العشر الأواخر من كلِّ شهر.

أدار حسن وجهه وقال بسخريةٍ لا تخطئها أذن:

ـ أتدري، فلو كانت أنجلينا جولي لما انتظرتها طوال هذا الوقت.

لم يكمل عبارته المستفزَّة حتى رأيت ثلةً من الشباب؛ أصغرهم في العشرين وأكبرهم قد تجاوز عقده الثالث، بينهم شرطيان يمشون تجاهنا برصانة. ارتبكتُ وسرت رعشة

في بدني. لم أقترف أيَّ جريمة ومن ثَمَّ لماذا سأخاف. هكذا قلت. لكن نظراتهم كانت توحي بخطبٍ ما. رتَّبتُ أفكاري، ونظرتُ إلى حسن الَّذي كان منشغلًا بالتلصص على فتياتٍ لم يبلغن العشرين، ولم يتمتعن بعد بنضج حلمات نهودهنَّ. ما إن أدرتُ وجهي حتَّى تهجَّم عليَّ شابٌ يصرخُ صراخًا مجلجلًا استنفر المستمتعين بغروب الشَّمس في الساحة التي تُعَدُّ المتنفس الحقيقي لأبناء المدينة. تجمهر النَّاس حولنا. حاصروني بعباراتٍ أتلفت خيوط ذهني، ولم أعد قادرًا على التركيز. استعدتُ تركيزي، واستشففتُ أنَّ سبب هذه الهالة هو أنَّهم يشكون فيَّ بأنَّني اعترضتُ طريق صديقهم، الذي يرقدُ في المستشفى الإقليمي، في عتمة الليل يوم الثلاثاء المنصرم في أحد الوديان المحيطة بالمدينة، واستللتُ مدية وضربته بها على وجه فسقط مغشيًّا عليه ومضرجًا بالدماء، ولذت بالفرار بعدما سرقت دراجته النَّارية.

قفز قلبي في تلك اللحظة، حتى خلته سيشق الضلوع ويخرج. أردتُ الذود عن نفسي، لكن لساني ابتلع، إذ لم يخرج صوتي من حلقي كأنَّ تلك الصرخات التي أسرفت في نزفها، قد جفَّفتهُ. قادني الشرطيان إلى سيارة مكتظة بأوراق تحملُ ختمًا وشعارًا موحَّدين، وحدجتُ حَسَن يقف مندهشًا

مـن كلِّ مـا سـمعه، والنـاس يسـتفسرون حـول مـا حـدث آملـين في الوصـول إلى معلومـة قـد يحتسـون بهـا كأس شـايٍ في المسـاء ويقصُّــون الحكايــة بكثــير مــن الإثــارة والتشــويق. وصلنــا إلى مخفـر الشُّرطـة المنكـوب، دخلتـهُ وأنـا أمـرِّر عينـيَّ عـلى قاعـاتٍ متشرذمــة بمكاتــب متآكلــة يحتلهــا ضبَّــاط، ورمقــت شــخصًا مدججًـا بالرُّتـبِ يمـلي عليهـم خطابًـا، ربَّمـا عميـدُ المخفـر، ومـا ينـمُّ عـن ذلـك، مجيئـه إلى عملـه في أقـصى أبَّهتـه.

دحــرت ظــلام المخفــر. أدخلــوني إلى زنزانــةٍ ضيِّقــة، لا تتســع ســوى لشــخصٍ واحــد، لكنهــا تضــمُّ ثلاثــة أشــخاص، يبــدون مــن المحبِّــين للقــزع إذ يحلقــون رؤوســهم بطريقــةٍ مريعــة، وأحدهـم يقطـرُ وجهـه دمًـا، ربَّمـا ضُبِـطَ وهـو في أرض المعركـة واقتــادوه دون أن يضمــدوا جرحــه الَّــذي اســتمرَّ في النزيــف وجــذبِ الميكروبــات حــتى التــأم.

قفـز إلى ذهـني سـؤال هيَّـج شـعور الخـوف والحـزن والرضـا بالقــدر: كيــف حــدث ذلــك؟ قبــل ســاعة كنــت أنتظــر مــن عشـقتها عشـقًا جارفًـا وبفضلها انضممـت إلى روَّاد العشـق الَّذين دوَّن التاريـخ أسـماءهم في سـجلاته، والآن أُقتـاد إلى زنزانـة قـذرة تغمرهـا رائحـة نتنـة، وأرضٌ بـاردة، في عـزِّ شـهر شـباط / فبرايـر لا أعـرف مـتى أبرحهـا؟ تذكَّـرت حينهـا حالـة أمـي بعـد أن يـزف

لها أحدهم هذا النَّبأ السيئ، والأفظع من ذلك حالتها بعد معرفتها للجريمة المُلفَّقة لي، رغم أنَّها على يقين أنَّني لم أقترف أيَّ ذنب، فإنَّ الشُّرطة لا تؤمنُ إلَّا بالدليل الملموس.

قضيتُ تلك الليلة القاحلة واقفًا، ولم أستطع النوم بسبب الصراخ والعويل البغيض الَّذي يهزُّني، بعد أن يتلقى مجرمٌ أو مظلومٌ صفعةً حتى يعترف أو يرشقونه بكلماتٍ بذيئة. وكنت أسمع ضحكات مجلجلة، من الزنزانة المجاورة. تركتُ الأمر لأقدار الصباح، تصيرهُ كما شاءت، وغفوت، كغفوة مقاتلٍ في حرب. حلَّ الصباح، واستيقظتُ على صراخ شرطيٍّ فارع القامة، أمرد الوجه، رائحة تبغ نفَّاذة تنزُّ من أنفاسه، يصيحُ باسمي، وقادني نحو مكتبٍ في ركن قصي. دلفتُ المكتب فرمقتُ والدي وحسن يقفان إلى جانب الضابط ومعهم شخصٌ من أهالي القرية يحظى بمكانةٍ مهمَّة لدى رجال الدرك ورجال الشُّرطة. حينها كنت بلا عقل أجمعُ خلاياه لأحكي ما حدث، بلا لسانٍ أسخِّرهُ في سرد ما حصل، بلا قدمين أستند إليهما، ولا معنويات أرفع بها رأسي. رماني والدي بعبارةٍ أبكتني:

ـ دائمًا كنت أحسبك رجلًا، وهأنت تغدر آمالي.

رفعتُ رأسي وقلت بصوتٍ مبحوح:

ـ لم أفعل شيئًا، والعدالة ستقول كلمتها بمشيئة المولى.

ردَّ بصرخة تدغدغُ الشعور:

ـ اسكت، لا تُضِف شيئًا.

تواصل مسلسل أسئلة الضباط الفاجرة، تطنُّ في رأسي، أسئلتهم طُرِحت برطانة، أو هكذا خُيِّلَ إليَّ. رغم ذلك أجبت دون مواربة، لم أصرح إلَّا بالحقيقة. جالت في ذهني أسئلة عدَّة، ولعل أبرزها: هل ظنَّ أبي، قبل معرفته بالتهمة، أنَّني أتردد على تارودانت من أجل الماخور الذي تباعُ فيه الأجساد بمتعةٍ ميكانيكية، وأضحى ملاذًا لفتياتٍ اُغتصِبن في أعمارهنَّ، وكرَّسوا وقتهنَّ لإشباع رغبات شباب محرومين في مدينةٍ تمارس فيها الشَّهوة حقَّها؟

اقترح طارق أن نتوصَّل مع الضحايا إلى حلٍّ ودِّيٍّ، ويدفع والدي مبلغًا من المال حتى يوقِّعون تنازلهم على الشكاية. اعترضت. ورفضتُ رفضًا قاطعًا لأنَّني لم أفعل شيئًا. تشابهتُ لهم مع شخصٍ ما ورَّطني في قضية لا علم لي بها. منذ طفولتي عانيتُ البدانة الزائدة التي عذَّبتني وجعلت نفسيتي مهترئة بسبب نظرات النَّاس، فأخذت على عاتقي

أن أضع برنامجًا وأتَّبع حميةً وكلي أمل أنْ تتضاءلُ الدهون وأصبح إنسانًا طبيعيًّا. باءت محاولتي بالفشل فتركت الأمر للزمن وتعايشتُ مع وضعي مُكرهًا، وما زاد الطينة بلَّة هي النُّدبة البادية على وجهي، هي ندبة أفرزها عراكٌ ذات ليلةٍ من ليالي غشت الدافئة، بعدما دخلتُ في شنآن فكري في البداية قبل أن يتحول، على جناح السرعة، إلى تشابكٍ بالأيدي. وها هي البدانة تورِّطني في ورطةٍ قد لا أخرجُ منها.

يا لها من ورطةٍ حقيقية. لم تخترقي ذهني يا كوثر لأوَّل مرة منذ عرفتك في حيِّ الهدى ذات صيف، لأن تفكيري في المعضلة الراهنة، كان أعظم من تفكيري فيكِ، فهذه المعضلة استطاعت فعلًا أن تقصيكِ عن ذهني وتشوِّهُ رسومات الأمل. أعادوني إلى زنزانتي مع الأشخاص أنفسهم. فتحت الشُّرطة بحثًا معمَّقًا في ملابسات الحادث ربَّما تيقنوا ببراءتي أو أنَّ سجلِّي العدلي يؤكد ذلك. زرت مخفر الشُّرطة أول مرة وآخر مرة عندما أنشأت بطاقتي الشَّخصية، ومنذ ذلك الحين لم أزره مطلقًا.

قضيتُ ثلاثة أيام وسط القذارة، وكلَّما خرجتُ، بعد استعطافٍ كبير، إلى المرحاض، أشعر بالقرف إثر رائحته الكريهة، تغيبُ فيه شروط الإنسانية؛ فهو مرحاضٌ بلا ماء،

بـلا مناديـل أو صابـون. أمـرُّ مـن ممرٍّ ضيِّـق ممتـلئ بالمعضلات، يتوسـط سـقفه مصبـاحٌ خافـت، نـورهُ غـير كافٍ حـتى لتقفِّـي خطواتـك، أرى السـكارى، دون التدقيـق في ملامحهـم، ينتظـرون البـثَّ في شـأن ترنُّحهـم في الشـوارع، بائعـات هـوى بأظفـار مصبوغـة بالمانيكـير، وملاحـة رثـة، يتضاحكـن، ويعِـدن ويتواعـدن، بـلا رهبـة مـن المـكان، ورجـال بملامـحٍ عاديـة، لا يبـدون مـن الخارجـين عـن القانـون، ربَّمـا سـاقتهم الأقـدار، مثـلي، إلى مواجهـة تهمـةٍ لا يعرفـون أساسـها.

في صبـاح يـوم الإثنـين؛ يـومٌ سـليل أيـام الآحـاد الكئيبـة، زفَّ إليَّ شرطـيٌّ خـبر تعرُّفهـم مرتكـبَ الجريمـة، وقـد ضُبِـطَ متلبسًـا في الـوادي نفسـه يتربَّـص بعابـري السـبيل. أفرجـتُ عـن ابتسـامةٍ حـتى بانـت نواجـذي، وصرت أتجشَّـأ فرحًـا. أخـيرًا ثبتـت بـراءتي.

انتظرتـني أمـي بدمـوع الفـرح، واسـتقبلتني بحضنهـا الـدافئ، والـكلُّ فـرح بخروجـي مـن هـذه المحنـة، يحمـدون الله عـلى عـودتي سـالمًا غانمًـا. وقَّعـت عـلى محـضر أقـوالي مجـددًا، وتلقَّيـتُ عبـارات الاعتـذار مـن أهـل الضحيـة. عـدتُ إلى البيـت، أخـذتُ حمامًـا فاتـرًا، واسـتلقيتُ عـلى الأريكـة ونمـتُ طويـلًا. أحسسـتُ براحـة اسـتشرت في جسـدي. وألقيـتُ نظـرةً عـلى هاتفـي الَّـذي بقـي بحـوزة حسـن منـذ ذلـك المسـاء المشـؤوم.

نقـل حسـن إليَّ خـبرًا أغرقـني في الحـسرة:

ـ كوثـر اتَّصلـت وأخبرتهـا بمـا حـدث ولـم تـأتِ لزيارتـك. اعلـم أنَّ الخـبر قـد ذاع بـين النَّـاس.

تصلَّبت في مكاني، وقلت بنبرة حزن:

ـ الأخبـار السـيئة يتفـنَّن هـؤلاء المغاربـة في نقلهـا بسرعـة، ويضيفـون عليهـا البهـارات حـتى تُصبـح مـادَّة دسـمة.

إنَّ الأشـخاص مجـرَّد عابريـن يتسـاقطون مـع مـرور الوقـت كتسـاقط أوراق الأشـجار في فصـل الخريـف. هـذه قاعـدة آخذهـا قاعـدةً رسـمية في درب الحيـاة، فأنـا منـذ صغـري أمقـت العلاقـات الاجتماعيـة وأزدريهـا، وأحـاول، قـدر الإمـكان، تقزيمهـا.

كوثـر وحـبِّي الجـارف لهـا دُفِـنَ في ذلـك اليـوم الـذي تلقَّيـت فيـه خـبر عـدم قيامهـا بـأيِّ ردَّة فعـل. نسـيتها كمـا تنـسى الحـوادث العارضـة بعدمـا أحسسـتُ بترهـل عشـقي. كنـت عاشـقًا فـذًّا بـلا مقوِّمـات. عـدم مجيئهـا وبذلهـا جهـدًا حـتى تعـرف حيثيـات المشـكل أغرقـني في الكآبـة، كآبـةٌ تتلاقـحُ في داخـلي بشـدَّة، كآبـة مـن الدنيـا كلهـا، وأدركـتُ حينهـا أن هـذه الحالـة هـي حالـة العشـق الأخـيرة الـتي قـرأت عنهـا كثـيرًا. إنَّ النهايـات غالبًـا مـا

تجـافي البدايـات. كتبـتُ بالبنـط العريـض عـلى ورقـةٍ موضوعـة بعنايـة، عـلى طاولـة صغـيرة تتوسـط غرفـتي، عبـارة أدمـتْ قلـبي: «عقابيـل العشـق دائمًـا مؤذيـة».

بُويضةٌ عصيَّة

تـزوَّجَ شـابٌ شـديدُ الحيـاءِ، كثـير الخجـل بفتـاةٍ لا تقـلُّ عنـه حيـاءً وخجـلًا. مـرَّتْ سـنتان، ولـم يُنجِبـا، فأجبرتهمـا أمهمـا عـلى زيـارةِ طبيـبٍ لـيرى إنْ كانـا سـليمين، أم إن أحدَهمـا عقيـم. زارا الطبيـبَ، سـألهما عمَّـا يفعلانـه في فراشـهما ليـلًا، فأجابـا بصـوتٍ واحـدٍ: «ننـامُ». سـألهما الطبيـبُ: «ألـم تسـهرا ليلـةً في شيءٍ جميـلٍ؟» قهقـه الشـابُّ قهقهـةً خجولـةً، واحمـرَّ وجهُـه، وهــو يقــول: «بــلى. ذات ليلــةٍ، انفجرنــا ضحــكًا مــن طريفــةٍ حكتهـا لنـا أمـي ذاك المسـاءَ». انفجـرت الفتـاةُ ضحـكًا. التفـت إليهـا الطبيـبُ، فسـكتت، وطأطـأتْ رأسـها خجـلًا. ثـم سـألهما الطبيـبُ بلغـةٍ مبـاشرةٍ: «ألـم تنامـا في فراشـكما عاريـيْن، وتُقبِّـلا بعضكمـا بعضًـا؟». ركَّـز نظراتـه الجـادَّةَ في الـزوج، وسـأله: «ألم

تُدخِـلْ قضيبَـك في فرجِهـا؟». كاد الـزوجُ يـذوب مـن الخجـل. التفـت يُمنـةً ويـسرةً. تأمَّـل في سـقف العيـادة وكأنـه يبحـث عـن ثقـبٍ لعلَّـه يخـرج منـه. سُـمِع البـاب يُغلـقُ وراء الزوجـة الـتي هربـتْ مـن مكتـب الطبيـبِ مـن هـول السـؤال شـديدِ الإحـراجِ. وجـد الشـاب نفسَـه أمـام طبيـبٍ لا يخجـلُ وجهًـا لوجـهٍ. أدرك أنَّـه في مـأزقٍ حقيقـيٍّ. "اِسـمعْ، إنْ كنـتَ تريـدُ أطفـالًا فـلا بُـدَّ أن تُجامعَهـا، وتُفـرِغَ فيهـا سـائلَك" قـال الطبيـبُ بحـزمٍ. أومـأَ الشـابُّ للطبيـبِ برأسِـه قائـلًا: نعـم، سـأفعل مـا طلبـت. أخـبر الشـابُّ زوجَـهُ الحسـناءَ بمـا يجـب أنْ يحصُـلَ، وهـو مُطْـرِقٌ وجهـه في الأرضِ. لـم يجـرُؤْ عـلى النَّظـر في عينيْهـا. وحـتى إن فعـلَ، فقـد كانـت مثلَـه تحفـرُ الأرضَ بعينيْهـا. في الليـل، أطفـآ الأنـوارَ كلَّهـا. صـارت الغرفـةُ كأنهـا سـجنٌ سريٌّ للتعذيـبِ، حيـث لا رائحـةَ للحـبِّ فيـه سـوى سـطوةِ الخجـلِ. بـدأ الـزوج في ملامسـة زوجتـه ومُداعبـة جسـدها المُرتعـد بفعـل الشـعور الممـزوج بالخـوف والخجـل، وسرعـان مـا جرفتهمـا حـرارة الحبِّ لعيـش لحظـات مـن المتعـة الجارفـة، متعـة لـم يخمـد لهيـب شـعلتها إلَّا صراخ الـزوج والـسرور يمـلأ قلبـه: «لقـد فعلتهـا. سـنرزق بطفـلٍ عمَّـا قريـب بمشـيئة المـولى. في الصباحِ، اسـتيقظ باكـرًا. وقـف أمـام عيـادةِ الطبيـبِ قبـل حلـول موعـد اسـتقبال المـرضى بسـاعتين، وعنـد وصولـه، زفَّ إليـه الـزوجُ النبـأَ.

مـرتْ سـنةٌ ونصـفٌ، والزوجـان ينتظـران بفـارغِ الصـبر قـدوم الأطفـال، إلى أن التقـى الطبيـبُ الـزوجَ في أحـد الأزقـةِ مصادفة، فسـأله عـن جديـدِ أنبائـه، فأخـبره أنـه ينتظـر الأطفـالَ بشـوقٍ كبـير. أحبـطَ كلامُـه الطبيـبَ، فطلـب منـه أن يُحـضر زوجـه ليُجـريَ لهـا بعـضَ الفحوصـات الـتي توصَّـل الـزوجُ بنتائجهـا بعـد أيـامٍ. إنَّ حيوانـاتِ الـزوجِ المنويَّـة لـم تتجـرَّأ عـلى الاقـترابِ مـن بويضـةِ الزوجـةِ لشـدةِ حيائهـا. وأكـدت الفحـوصُ أن البويْضـةَ تلوَّنـتْ بلـونٍ غريـبٍ لـم تشـهد العلـوم البيولوجيةُ مثلَـه مـن قبـلُ. وكتـب الطبيـبُ ملاحظـةً بالبنـط العريـض: «بُويضـةٌ عصيَّـة».

مُزحةُ الكِتابة

١

وصلتـني رسـالةٌ عـبر بريـدي الإلكـتروني. اطَّلعـتُ عليهـا وضحكـتُ مـلء شـدقيَّ. كان بإمـكاني أن أحذفهـا، ولكنَّـني كنـتُ في حاجـةٍ إلى شيءٍ يـروِّح عـن نفـسي المكـدودة والمُثقلـة بالهمـوم الـتي تلازمـني، كملازمـة الظـلِّ للشَّـجرة.

كانـت الرِّسـالةُ لشـابٍّ معجـب بكتابـاتي الـتي أَلِـف متابعتهـا عـبر الفيـس بـوك، يعـرض عـليَّ، في مجمـل رسـالته، أنـه يملكُ أفـكارًا ناضجـة، ربَّمـا أهضمهـا وأجمـع شـتاتها، وأخلـق منهـا، فيمـا بعـد، عمـلًا روائيًّـا أخـاذًا. لكـنَّ اللافـت أنـه سـيزوِّدني بأفـكاره المتفـرِّدة، كمـا ادَّعـى، مقابـل مبلـغٍ مـاليٍّ معـيَّن نتَّفـقُ عليـه. ضحكـتُ مجـددًا. وقلـتُ لـه في رسـالة مُقتضبـة:

ـ أرحِّبُ بأفكارك، وإذا أعجبتني سأتفقُ معك.

استدرك الشابُّ بدهاء واهٍ، وقال:

ـ سأبعثُ لك فكرة واحدة، كديباجة لأفكاري، والتي ستنال، دون أدنى شكٍّ، استحسانك. الفكرة الأولى هي أنَّ شابًّا سيأتي عبر مركبةٍ فضائية، وسيحطُّ رحاله في مدينة الداخلة المتميِّزة بصحرائها الذَّهبية وبشاطئها المبهر وبجوِّها المعتدل. وسيحاولُ التأقلم مع الوضع، بالرغم من أنَّه جاء من كوكبٍ يستحيلُ العيشُ فيه. وستعترِضُ طريقه عدَّة عقبات سَتُحولُ دون أن يتمَّ مهمَّته الاستكشافية. سيقضي شهورًا هنا قبل أن يكتشف أنَّه في الكوكب الخطأ وبأن جهده ذهب سدًى.

طالعتُ رسالتهُ بكثيرٍ من المحبَّة والشَّوق. ربَّما لأنها أيقظت أفكاري التي راودتني وأنا في العشرين من عمري. لكن كلَّما تقدَّم بنا العمر وواصل الإنسان البحث والاشتغال والقراءة والتمرُّن على الكتابة الرَّصينة تبلورت له رؤى وتصوُّرات جديدة. إنَّ فكرته لا يُمكنُ أن تكون جوهر روايتي، وأعمال كتلك، لا تشدني مطالعتها البتَّة.

لا ريب أنَّ الخيال حياتُنا الأخرى الَّتي نلجأ إليها كلَّما اقتضت الضرورة، لكن من الأفضل أن نجعلهُ (الخيال) يتأرجحُ ـ

رمزيًّا ـ بين الواقع والتأمُّل.

فالخيالُ المبالغ فيه يؤدِّي إلى كتابة نصٍّ جافٍّ خالٍ من أيِّ قضية رمزية تجذبُ القارئ. أقصد القارئ النَّهم الذي يقرأ بشكلٍ نوعيٍّ.

شجَّعتهُ بكلماتٍ، كنت أتمنَّى سماعها في بداياتي، دون مداهنة، لكنِّي لم أسمعها. حذفتُ رسالته دون أن أحظره كما أفعل دائمًا مع الَّذين لا أعرفهم رغم أنَّهم يعرفونني حقَّ المعرفة. أغلقتُ اللاب توب لأرى أناسًا يعبرون من هنا وآخرين يأتون من هناك. وجوهٌ استولت عليها حيرة الزمن والتيه، وأخرى تعتليها مسحة فرحة إلى حين، بين هذا وذاك حكايات أطفال يَحملون خطايا ذويهم ويبيعون الأحلام الورديَّة، وامرأة تبسط راحة يدها للعابرين تنشدُ الصدقات، وحارسُ السيارات الأبكم يحمل مذياعه وصوته يقرقع؛ يأتي صوتهُ منسابًا مع تموُّجات الهواء. ونانسي عجرم في الغرفة المجاورة، من شقَّتي، تغني بصوتها النشاز: «سلِّموا لي عَليهْ». وأنا في شرفة غرفتي واقفًا، شارد الذِّهن، ينغرسُ البردُ في عظامي كالدَّبابيس الدقيقة.

٢

ارتكبت الشَّركة المكلَّفة بالقطارات خطًا فادحًا لا يُغتفر. إذْ لم تستمع لشكاوى النَّاس بعدما أحسوا، وهم في القطار، باهتزازات غير عادية. استفسروا عن مصدرها ولكنهم لم يتلقُّوا إجابات مقنعة. ذهب المشتكون إلى حال سبيلهم. وركب آخرون في القطار نفسه غير مكترثين. قطع القطار فرسخًا أو فرسخين فوقعت الحادثة، وتعالى صياحهم، ولقي العشرات من الركَّاب مصرعهم، فيما سيُعاني البعض الآخر عاهات ستبقى ملازمة لهم ولن يستطيعوا إخفاءها. طائرات مروحية تقلُّ المصابين إلى المستشفيات على وجه السرعة، والصور الموثَّقة للحادث تهاطلت كالمطر على الفيس بوك. كارثةٌ حفرت جرحًا غائرًا في قلوب ذويهم. سرقهم الموتُ فجأة. الموت، كما قلت، يباغتنا في كلِّ حين، وهو المنتصرُ علينا جميعًا.

أتابع من كثب جزئيات وتفاصيل الحادث عبر مواقع السوشيال ميديا التي قدَّمت خدمة جليلة للبشرية لا يمكنُ إنكارها، رغم المساوئ الَّتي تحملها. لم يُفارق الهاتف يدي، أتابع آخر المستجدات بترقُّب يشوبهُ خوف كبير. قبل أن أتمدَّد على الأريكة هاربًا من يومٍ سيبقى راسخًا

في تلافيف ذاكرتي. سمعتُ الهاتف قد اهتزَّ بعدما توصَّلتُ برسالةٍ من إحداهنَّ تدعى سوسن، إلى جانب عشرات الرَّسائل التي توصَّلتُ بها طوال اليوم دون الاطلاع عليها. كانت معظمها أدعيةً أو فيديوهات تافهة يتقاسمونها معي. تعمَّدت ألَّا أُجيبها. تصفَّحتُ صفحتها الفيسبوكية؛ المُمتلئة بصورٍ لأفلامٍ ومسلسلات، سبق وأن شاهدتُ بعضًا منها، ونصوص اعتادت نشرها، كنت إلى وقت قريب، أجد صعوبة في تصنيفها وتحديد جنسها. كما اعتادت نشر مقاطع من رواياتٍ لأسماءٍ مغمورة، وفي بعض الأحيان تلتقطُ صورةً لروايةٍ أو كتاب فكريٍّ مترجم، ترجمتهُ ركيكة وطبعتهُ رديئة بعدما نشرته دار نشرٍ مبتدئة. خرجتُ من صفحتها ورميتُ هاتفي على الأريكة. اتجهت إلى المطبخ في تثاقل. تناولت قليلًا من الخبز والزُّبدة وسخَّنتُ كأس شايٍ بالنعناع. لم أعد آكلُ بنهمٍ كما كنت، بعدما فقدتُ شهيَّة الحياة.

تواصل مسلسل اهتزاز هاتفي برسائلَ كثيرة. تفقَّدتها. فوجدت أنها مرسلة من قبل الشخص عينه. يا للهول. تطلبُ منِّي منحها فكرة كتابة روايةٍ، وأن أرشدها إلى الأعمال التي يُمكنُ أن تنهل منها أسلوبًا رشيقًا، ولغة رصينة، وفكرة محوريةٍ وعنوانًا جذَّابًا. أعدتُ تصفُّح صفحتها مجدَّدًا.

طالعتُ صورًا لها. هي فتاة متأنِّقة في عقدها الثاني، تطبعُ الأناقة جلَّ صورها، فجسمها الرياضي المنحوت، وتسريحة شعرها الفاحم، وأحمر الشِّفاه على شفتيها الممتلئتين، تفاصيل تأسر أمثالي ممن اعتاد مسامرة الكُتب في الليالي الموحشة. فوجدتني غارقًا في استكشاف جسدها من مفرق جدائلها إلى موضع خلاخلها.

تردَّدتُ في إجابتها. لكنَّ جمالها وألقها شفعَا لها. كانت أسئلتها بليدة ذكرتني بالأسئلة نفسها التي طرحتها قبل عقدٍ من الزمن على كتَّابٍ كبار لم يعيروها اهتمامًا. بعدما بلغت مرادي، حذفت أرقام هواتفهم، وحساباتهم الفيسبوكية من لائحة أصدقائي، وتحاشيت معرفة أي شيء يخصهم.

أجبتها باقتضابٍ شديد:

ـ اقرئي قبل أن تكتبي. اقرئي الأعمال الكبرى، إذ ليس المهمَّ أن تقرئي ولكنَّ الأهمَّ هو أن تعرفي ماذا تقرئين.

قرأت رسالتي وسرعان ما أنهت صداقتنا الافتراضية لتتركني في حالة غُلمة واهتياج. تزاحمت الأسئلة في ذهني، إذْ لم أفهم سبب فعلها ذلك. هل قلتُ شيئًا ليس في محلِّه؟ لو لم تحظرني لاستعدتُ مراجعي في الغزل ومعسولِ الكلام

دُفعـةً واحـدة.

فـارت الدمـاء في رأسي بسـبب حظِّـي العاثـر. حذفـتُ المحادثـة الـتي جمعتنـا واسـتلقيتُ عـلى الأريكـة مفرجًـا عـن ابتسـامةٍ سـاخرة، فلـو بقيـت في صفحـتي لأرهقتـني بأسـئلةٍ أكـثرَ بـلادةٍ مـن سـابقاتها.

٣

في صالـة المطـار كتبـتُ جـزءًا مهمًّـا مـن روايةٍ عسـكرية، أشـتغلُ عليهـا منـذ سـنةٍ تقريبًـا، تعـودُ أحداثهـا إلى حقبـة الـصراع مـع المسـتعمر الفرنـسي الَّـذي هضـم حقوقنـا وأجحفنـا بقوانينـه الَّـتي تخـدمُ مصالحـه، ونهـب خيراتنـا أمـام أعيننـا، ونحـن نراقـبُ ذلـك في صمـتٍ وذهـولٍ كبيريـن. في أثنـاء اشـتغالي عـلى هـذه الرِّوايـة تعاملـتُ مـع وثائـق ونصـوص تاريخيـة بشـكلٍ مبـاشر واتـكأت عليهـا، إذْ كانـت هـي العمـودُ الفقـريِّ لأحداثهـا، ثـم إنَّ شـخصياتها مسـتوحاة مـن الخيـال، رغـم أنَّ طِباعهـا وسـماتها يمكـنُ أن تنطبـق فعـلًا عـلى شـخصيات حقيقيـة عايشـت الوضـع في تلـك الحقبـة وعـاصرت أطـوار الاسـتعمار، سـيَّما في سـنواته الأخـيرة.

مـا إن أغلقـتُ الـلاب تـوب وأشـحتُ ببـصري عنـه، فـإذا بي أرى

فتـاةً شـقراء تقـفُ أمامـي مبـاشرة، تُلقـي التحيَّـة، فأردفتهـا بابتسـامة مرحـة. قدَّمـت لي نفسـها. قالـت إنهـا تـدرسُ في أكاديميـة الطـيران المـدني، وأنهـا عائـدة للتـوِّ مـن النِّرويـج بعدمـا أنهـت دورةً تكوينيـة هنـاك. إنهـا تتابعـني عـلى الفيـس بـوك، ونظـرًا إلى امتـلاء حسـابي وعـدم قدرتـه عـلى قبـول المزيـد مـن الصداقـات، تعـذَّر عليهـا أن تكـون ضمـن لائحـة أصدقـائي. أبـدت إعجابهـا بتلـك الحلقـة الـتي كنـتُ ضيفًـا فيهـا في برنامـج روافـد، والـذي يعتـني بالإبـداع والمُبدعـين، برنامـجٌ يُبـثُّ عـلى القنـاة «العربيـة» تابعتـهُ منـذ بدايـة الألفيَّـة الأولى وتحقَّـق حلمـي بالمـرور عـبره.

جلسـت بجانـبي عـلى الكنبـة في صالـة المطـار الـتي أجدهـا مرتعًـا هادئًـا تنسـابُ فيـه أفـكار الكتابـة. تجاذبنـا أطـراف الحديـث قليـلًا. فهمـتُ مـن جلوسـها وحديثهـا معـي أنَّهـا تكتـب، وتـودُّ أن تنـشر روايـة، لـم تخـبرني بتفاصيلهـا.

قدَّمـت لي حزمـة أوراق تحملهـا معهـا أينمـا حلَّـت وارتحلـت. كُتِـبَ عـلى الورقـة الأولى بالبنـط العريـض الكـوفيِّ: مـرافئ الحبِّ. إنَّـه يشـبه عنـوان نصـوصٍ سرديَّـة كتبتهـا عـلى مـدى سـنةٍ كاملـة لـم أنشرهـا بعـد. أدخلـتُ حزمـة الأوراق إلى محفظـتي. طلبـت مـني رقـم هاتفـي. أجبتهـا مراوغًـا بـأنَّ هاتفـي يكـون في غالـب

الأوقـات غـير مشـغَّل، فقدَّمـتُ لهـا عنـوان بريـدي الإلكـتروني لنبقـى عـلى تواصـل، وأُبـدي رأيي في روايتهـا.

صعـدتُ إلى الطائـرة واسـتويتُ في مقعـدي وبـدأت أقـرأ عملهـا المكـوَّن مـن نحـو ٨٥ صفحـة مـن القطـع الصغـير. هـي ليسـت روايـة وإنَّمـا نوفيـلَّا ( ). بدأتْهَـا بافتتاحيـة مـن روايـة أحـلام مُسـتغانمي: "الأسـودُ يليـقُ بـك". واصلـتُ القـراءة. أحـداثٌ مشـتَّتة، وشـخصيَّاتٌ مبعـثرة، ولغـة جـد بسـيطة، تفتقـد الدقـة في أثنـاء الوصـف. أحسسـتُ، أكـثر مـن مـرَّة، بخروجهـا عـن منحـى الموضـوع، إذ كانـت تكتـب وخيـطُ الـ نوفيـلَّا ينفلـتُ مـن بـين يديهـا. تضمَّـن عملهـا هـذا حشـوًا كبـيرًا وتكـرارًا للكلمـات وهـو مـا سـبَّب لي إرهاقًـا وإحساسًـا بالملـل. ومـا زاد الطينـة بلَّة، هـي جمـرة الأخطـاء اللغويـة والنحويـة الـتي خلَّفـت منحنيـاتٍ واضحـة في روايتهـا القصـيرة، ناهيـك بغيـاب علامـات الترقيـم، ربَّمـا تظنُّهـا مجـرَّد علامـات تُزيِّـن النَّـص لا غـير.

أحـداثُ الرِّوايـة تبـدأ في رحـاب الأكاديميَّـة، بعدما أعجبـت بطيارٍ فاتـن، مديـد القامـة، أمـيريِّ الوسـامة، سـمح الوجـه، منـشرح الصـدر. تخـرَّج في الأكاديميـة نفسـها الَّـتي تـدرسُ فيهـا. عرفتـهُ في أثنـاء تقديمـه لورشـةٍ يُؤطِّـر فيهـا الطـلَّاب باعتبـاره خرِّيجًـا سـابقًا، يشـحذ مـن خلالهـا هممهـم، ويبعـث فيهـم الطَّمأنينـة

ويزيدهم إصرارًا على التشبُّث بأحلامهم وتطلُّعاتهم. توطَّدت العلاقة بينهما، فعصفت رياحٌ بعثيَّة بقلبها، فأقدمت على حبِّه دون تفكيرٍ مسبق، فانتهت قصصهما كباقي القصص. بالغتْ في وصفه. اتَّبعتُ وصفها حتى ظننتهُ يفوقُ يوسف ( ) جمالًا. قضَّت هذه الرِّواية مضجعي. لم تنل استحساني بتاتًا. تنقصها تجارب وتراكمات.

وصلتُ إلى الكويت البديعة المميَّزة بجوِّها الصحو وبشوارعها الكبيرة. نزلتُ بأحد فنادق العاصمة. أخذتُ حمامًا فاترًا لإزالة تعب السفر. شغَّلتُ اللاب توب فوجدتُ رسالة من طرف صاحبة مرافئ الحبِّ. تُدعى أريج كما هو مبيَّن في عنوان بريدها الإلكتروني. ربَّما أخبرتني باسمها عندما التقيتها في صالة المطار. من عاداتي السيِّئة عدم تذكُّر الأسماء.

كتبتُ لها رسالةً قلتُ فيها:

ـ طالعتُ روايتك التي لا يظهر فيها أنك لم تبذلي أي جهد، لا على مستوى القراءة أو الكتابة. اكتبي ومزِّقي ما تكتبينه قبل أن تمزِّقَكِ العتمة. اقرئي قبل أن تكتبي. إنَّ الكتابة تعدُّ دربة ومرانًا، فمهما كانت عباراتك عرجاء ومتهافتة، كما جاءت في روايتك القصيرة، فإنَّك ستتجاوزينها بالتمرُّن على

الكتابة والانفتاح على التجارب الأدبية الكبرى. تفتقد روايتك القصيرة للسرد الدَّقيق والتفنُّن في انتقاء عبارات الوصف، ثم إنَّك لم تتشبَّعي بتقنيات السَّرد الحديثة ومعالجة قضيَّة تتأرجحُ بين الواقع والخيال وليس الكتابة عن اليوتوبيا. ثم إنَّك تفتقدين حبكة مُحكمة تستهوي القارئ. دمتِ بخير أريج. وأنتظر منكِ عملًا أكثر نضجًا في المستقبل.

توالت الأيام دون أن أتلقَّى ردًّا من أريج. مرَّت شهور كثيرة دون ردٍّ منها. بعد سنتين تقريبًا وصلتني رسالة لم أعرف صاحبها لولا أنَّ الرسالة تضمَّنت عنوان الرِّواية القصيرة سالفة الذِّكر. تذكَّرتها جيِّدًا.

تقولُ في رسالتها إنَّها قد فازت بجائزة تحتلُّ مكانة مرموقة في الوسط الثَّقافي العربي بالرِّواية نفسها دون أن تُدخِل عليها أيَّ تعديل.

أيُّ معيارٍ توفَّر في روايتها حتى تنال هذه الجائزة؟ لم يكن سردها رفيعًا، لم تُجِد القفز على حبال الكلمات برشاقة، لم تمتلك أسلوبًا فريدًا. هي رواية لا تعالجُ أيَّ قضية قد تجذبُ الأنظار. روايةٌ تتنافى كليًّا مع قواعد الرِّواية المتعارف فيها. استوعبتُ حينها، بشكلٍ قطعيٍّ، أنَّ المبادرات الثَّقافية

في العالـم العـربي تُعطـي جوائـز مـزوَّرة، هـي في الحقيقـة جوائز مُخاتلـة للتاريـخ.

أجبتها:

ـ سَعدتُ من أجلك أريج. مع تمنياتي لكِ بالتوفيق.

الكتابـةُ مـرض. لازمـني هـذا المـرض سـنوات دون أن أتخلَّـص منـه. مـا إن قـرأت رسـالة أريـج حـتَّى اسـتطعتُ الانفـلات مـن قبضتهـا -الكتابـة- مبـاشرة.

ليلةُ الخفافيش

انقلبت السيارة فجأةً، كنت بداخلها أنا وثلاثة زملاء يتقاسمون معي تعب خدمةٍ أسديناها لوطنٍ عزيز على قلوبنا، ضحينا بكلِّ شيء من أجله، حتى لا تعبث به أيادٍ فيها من الشرِّ تجاه بلدنا ما قد يغرقهُ في عذاب ومآسٍ سيتخبَّطُ فيها عقودًا طويلة. أُغمي عليَّ، بعد أن ارتطم رأسي بمقود السيارة، وانقلبت من أعلى سفح جبلٍ صغير، ربما يتجاوزُ طوله أربعين قدمًا. قبل أن يُغمى عليَّ ظنَّ صراخ زملائي في رأسي، وسقطت سيجارة «مالبورو» من يدي، حينها اكتويتُ بجمرة الحياة.

نسَّقنا مع قوَّات التدخل السريع لإجهاض أكبر عملية تهريب المخدرات سيعرفها البلد، هناك في الحدود بين وجدة والجزائر. تتبَّعنا ملف العملية منذ شهور، وتوالت

أيـام العمـل المكثَّـف لإيقـاف هـذه العمليـة. في آخـر اللحظات، ونحـن في طريقنـا تجـاه كـوخٍ يقـع في أعـلى الجبـل، ظننـا أنَّنـا سـنبادرُ بالتدخـل لتلتحـق بنـا قـوات التدخـل السريـع، فرمقنـا ضـوءًا خافتًـا بـزغ فجـأة مـن بعيـد. تفاجأنـا. وتحرَّكنا عـلى جناح السرعـة. كانـت يـداي ترتعشـان، وجبيـني ينضـحُ عرقًـا، نفثـتُ دخـان سـيجارتي ببـطء غـير اعتيـاديٍّ. شـغلتُ السـيارة وتحركنـا بسرعـة. زمـلائي جهـزوا عُدَّتهـم (مسدسـات وأجهـزة لاسـلكيَّة) آخذيـنَ في الحسـبان كل مفاجـأة لـم نكـن ننتظرهـا. في عملنـا تعوَّدنـا عـلى المفاجـآت الـتي تهـزُّ كياننـا الدَّاخـلي، وبهـا فقدنـا الثقـة في كل شيء. السـيارة الـتي رأيناهـا كانـت لقـوَّات التدخـل الـتي تلقَّـت أوامـر للتدخـل دون أن نعلـم نحـن بالتغيـير الـذي جـرى. عـدم التنسـيق الجيِّـد بـين الفريقـين حـالَ دون إتمـام العمليـة، وتسـبب في حـادثٍ مـروع لـم يفـارق ذاكـرتي رغـم العقـود الـتي تلتـه. انزلقـت العجلـة مـن صخـرة كبـيرة لـم أرهـا. صدِّقـوني. لـم أرهـا أو لـم أنتبـه لهـا، فـكلا الأمريـن سـيَّان. ضبـاب حجـب عـنِّي الرؤيـة، فلـم أرَ شـيئًا.

فتحـت عيـنيَّ في المستشـفى العسـكري. وجـدت بجانـبي طبيبًـا عسـكريًّا يرتـدي بـزَّة بيضـاء. كان شـاحب الوجـه، شـعره أشـقر منكـوش، نحيـف الجسـد. هـدَّأ مـن روعـي. وطمأنـني بلغـةٍ فيهـا

مـن الأدب واللباقـة مـا يكفـي للانحنـاء لتحيَّتـه. تحسسـت رأسي المغطـى بضمـادات، جـروحٌ بالغـة الخطـورة تجتاحـه، ثـم إن وجهـي لـم يسـلم مـن بعضهـا النَّاتـج عـن تكـسر الزجـاج الأمامـي. لـم أشـعر بإحـدى قدمـيَّ. أزحـت الغطـاء، رغـم مقاومـة مـن الطبيـب، عطفًـا عـليَّ، فـإذا بي أرى قدمًـا عاديـة، وأخـرى أخفتهـا الضمَّـادات. وضعـت يـدي رأسي مـن هـول الصدمـة، وذرفـت دمعتـين سـاخنتين تسـلَّلتا ببـطء مـن عينـيَّ الذابلتـين، فاسـتشرى رعـب في بـدني.

بلغـني أن زُمـلائي الثلاثـة ماتـوا قبـل وصولهـم إلى المستشـفى. فاجتاحـني دبيـب الحـزن الـكاسر. لقـد زاولـت برفقتهـم مهنـة صعبـة لمـا يربـو عـلى ثلاثـة عقـود. كانـوا زمـلاء في العمـل، وأصدقـاء وأحبـة خارجـه. لـم تكـن بيننـا أسرار، إذ كنَّـا نشـتغلُ عـلى الملفـات الَّـتي تصلنـا بشـكلٍ جماعـي. نتبـادل بعفويـة وصـدق للخِـبرات والأفـكار، دون تقصـيرٍ أو احتـكار. هـا هـم يرحلـون الآن في صمـت وسـكون.

اسـتبدلوا قدمـي المبتـورة بأخـرى بلاسـتيكية، أمقتهـا وأزدريهـا كلَّمـا نظـرتُ إليهـا. وصلـتُ إلى مـنزلي الَّـذي لـم تطـأه قدمـاي منـذ شـهر تقريبًـا. الشـهور صـارت تمـرُّ كالأيـام، افتقـد الزمـن قيمتـه، وصـار يجـري وكأنَّـه يتطلَّـع إلى الوصـول إلى مرحلـةٍ لا

نعـرفُ مـتى سـيحين أجلهـا. توجَّهـتُ إلى غرفـتي المبعـثرة، فوضى عارمـة تملأهـا عـن آخرهـا. اسـتلقيت عـلى سريـري لعـلِّي أنعـم بقسـط مـن الراحـة ينسـيني بعضًـا مـن أوجـاع هـذه المأسـاة الـتي آلمـت كيـاني، وبعـثرت أوراق ذاكـرتي. فمشـهد جثامـين ضحايـا الواجـب لا يـزال عالقًـا بمخيلـتي، ورائحـة المشـفى لـم تفـارق بعـد أنفـي.

سـمعتُ طرقـاتٍ عـلى بـاب مـنزلي، وصراخًـا وعويـلًا، وصـوتُ زوج عمَّـتي الحـاد يخـترق أذنيَّ. فتحـتُ البـاب فارتمـت عمَّـتي في حضـني تبـكي وتتحسَّر عـلى مـا وقـع لي. وصلهـا الخـبر عـبر موجـات الإذاعـة، وسـمعت اسـمي مدرجًـا ضمـن الَّذيـن واكبـوا العمليـة وأخفقـوا في إتمامهـا. زوجهـا يقـفُ جانبًـا دون أن يهدِّئهـا، يحمـلُ كيسـين، عرفـتُ فيمـا بعـد أنَّ بداخلهمـا مـاء زمـزم وأعـواد طيـب ورائحـة القرنفـل، وسـجادة وتسـبيح. عـادا للتـوِّ مـن عمـرة أدَّيـا مناسـكها. قبـل ذهابهمـا بأسـبوعٍ تقريبًـا لـم أرهمـا. ودَّعـتُ عمَّـتي ودعيـتُ لهمـا بعمـرة مقبولـة، وأن تعـود إلينـا في أمـان. أمَّـا زوجهـا فلـم أُعِـرهُ اهتمامًـا. وجـودهُ مـن عدمـه لا يُغـيِّرُ شـيئًا.

دلفنـا البيـت، وعمـتي انهـارت بعدمـا رأت قدمـي البلاسـتيكية الـتي سـأُجبرُ عـلى التعايـش معهـا وجرِّهـا في شـوارع المدينـة

حـتى أرحـل عـن هـذه الدنيـا الـتي ترسـلُ سـهامًا تقلـبُ حيـاة الإنسـان في لمـح البـصر. بعدمـا كان يغمـرني فـرحٌ ضـاجٌّ، وانتشـاء بتأديـتي مهمَّـةً أحببتهـا، وسـأكرهها فيمـا بعـد. هـا هـي الآيـة تنقلـب، كمـا انقلبـت السـيارة في تلـك الليلـة الـتي أطلـق فيهـا الليـل ظلامـه الدامـس، وسـأعيشُ مـا تبقَّـى مـن حيـاتي ككلـبٍ مسـعور أجـرُّ سـاقيَّ، وأتحمَّـل نظـرات النـاس القاسـية، والأسـوأ منهـا نظـرة أعـدائي.

انتهـت عمَّـتي مـن حملـة بكائهـا، وعـادت أدراجهـا هـي وزوجهـا الحـاج محـيي الدِّيـن. مـرَّت الأسـابيع، وانتظـرتُ رسـالةً مـن المؤسسـة الاسـتخباراتية الـتي كنـت تابعًـا لهـا. تمنَّيـتُ أن أتوصـل برسـالة عرفـان وتقديـر لجهـودي. انتظـرتُ طويـلًا ولـم أتوصـل بـشيء. كلَّمـا انتظـرت مزَّقـني اليـأس والحـزن وشـعور آخـر لـم يسـبق لي أن أحسسـت بـه.

ذات صبـاحٍ ممطـر، هطـل المطـر مـن السـماء مـدرارًا، اسـتيقظتُ عـلى صـوت طرقـاتٍ مـن سـاعي البريـد، الـذي لا يـزفُّ في غالـب الأحايـين، أخبـارًا سـارَّة. فهـو الوحيـد الـذي يعـرفُ جميـع عناويـن بيـوت المدينـة ولا يملـكُ بيتًـا. تسـلَّمت الرسـالة عـلى عجـل، ومـددتُ لـه بطاقـة هُويَّـتي، ووقَّعـت عـلى ورقـة فرنسـيَّتُها متعبـة، ثـم غـادر. عـدت إلى غرفـتي أترنَّـح.

فتحتُ الرسالة على عجلٍ، تضمَّنت معلومات حول رصيدي البنكي، وكم سيبقى لي من تقاعدي القسري؛ أجرٌ زهيد جدًّا جدًّا. ماذا لو كنت ربَّ أسرةٍ ولي أبناء هل ستكفيني هذه الأجرة التي لم تصل إلى نصف ما كنت أتقاضاه عندما كنت موظَّفًا بساقيَّ.

على الأقل ستساعدني تلك الشقَّة التي أكتريها لمومسة لفظتها الحياة، ورمتها كما ترمى جثث الحيوانات في الوديان والآبار الفارغة التي غادرتها المياه. لن أستطيع المكوث في بيتي طوال اليوم دون فعل شيء، وأنا مقبل على سن الخمسين، أي إنني أطلُّ على الكهولة. راودتني فكرة قراءة الجرائد والمجلَّات لكي أعرفُ بواسطتها ما يقعُ في البلاد، وأن أهتم قليلًا بالوسط الثَّقافي. عندما كنت في وظيفتي، عميلًا سرِّيًّا في المخابرات، والتي تشتغلُ ليلًا ونهارًا، ساهرةً على أمن البلاد، تتقصَّى الجزئيات التي لا ينتبه إليها رجال الأمن العاديون. لم أكن أكترث البتة للجرائد والصحف؛ فهي تعجُّ بالأخبار السياسية وحروبها، ثم إنها مملوءة بآخر مستجدات ما يعيشهُ هذا المجتمع المتقهقر، المنخور، فكل شيء كان يصلنا بالتمام والكمال.

كلُّ يوم أقرأ، أتقصَّى جديد الأخبار، فجاءت فكرة كتابة مقالٍ

أو قصَّة قصيرة عن حادث تلك الليلة. حملتُ قلمًا وورقة صفراء، وبدأتُ أخطُّ سطرًا، فسطرين، فثلاثة. فتفاجأت أنَّ ذهني أفرغ الوفير من الكلمات والعبارات التي كنت أُخزنها في ذاكرتي. عندما أُكلِّف بدراسة ملف كاتب، يواظبُ على نشر ما تخطُّهُ يداه على الفيسبوك، أقرأ كلماته بتأنٍّ وأهيم في دواخل ما كَتَبَ، حتى أكاد أنسى مهمتي التي كُلفتُ بها. وأستعير من نصوصه عباراتٍ تفنَّن في نحتِها. إن وطننا يزخرُ بكتَّابٍ مبدعين، لهم أسلوب أخَّاذ ولغة رصينة يتلاعبون بها في صورةٍ قلَّ نظيرها، ولهذا وجب الاعتناءُ بهم، حتى لا تضيع أفكارهم في غياهب النِّسيان. أعرف عن كل الكُتَّاب جزئيات حياتهم، والأيديولوجيات الَّتي تشبَّعوا بها بعد انفتاحهم على تجارب أدبية وفكرية فريدة.

لم أستطع كتابة نصف صفحة، إذ سرعان ما أعدتُ القلم إلى بذلتي المزركشة، ومزَّقت الورقة. هاتفي لم يسبق له أن رنَّ. عمَّتي في بعض الأحيان تتقصى أحوالي في مكالمة سريعة جدًّا، بعدما كان يرنُّ آناء الليل وأطوار النَّهار حتى تفرغ بطاريتهُ. أجلس في مقهى «أجيال» الموجودة قبالة الشَّاطئ. أرتادها لأنَّها رخيصة الثَّمن ونُدلها يكنُّون لي احترامًا كبيرًا. طبعًا هذا حدث قبل فقداني لوظيفتي. أمَّا الآن؛ فلا

ينظـرون حـتى إلى وجهـي. يقـف النـادل أيمـن، المُنحـدر مـن منطقـة أمازيغيـة جنـوب البـلاد، وقفـة محـارب في سـاحة المعركـة، ويقـول باقتضـاب شـديد:

ـ تشرب شي حاجة؟

أندهش، وأتدارك الأمر بسرعة. وأردُّ:

ـ انْوَارْ ( ).

في السـابق، قبـل أن أدخـل إلى المقهـى يلقـون عـليَّ التحيـة وأنـا مـا زلـت أقـف عـلى ناصيـة الشـارع، يختـارون لي أجمـلَ مـكانٍ في المقهـى، كتلـك الطـاولات القريبـة مـن الشـارع، والـتي أجلسُ فيهـا فأنتعـش بريـاح البحـر الـتي تهـبُّ عـليَّ مخترقـةً سـترتي ومتوغلـةً في أحشـائي وضلوعـي. لقـد كرهـت النُّـدل لأنَّهـم لا يحبُّـون سـوى المنحدريـن مـن الطبقـات البرجوازيـة، الغارقـين في الأبَّهـة الفارغـة، الذيـن يمـدُّون لهـم دريهمـات تسـاوي مـا يحصلـون عليـه مـن عـشرة زبائـن ينحـدرون مـن الطبقـة المتوسـطة، المنخوريـن بالديـون والاقتطاعـات.

تواصـل مسلسـل سـقوط أقنعـة هـذا المجتمـع السـيئ وتفاجأتُ بالحقيقـة المُـرَّة للكثيريـن. نظراتهـم القاسـية تبعـث العجـز في نفـسي، وعباراتهـم الجارحـة تقصـمُ ظهـري. لقـد تغـيَّرت

تصرفاتهـم. لقـد اكتشـفت كل هـذا بعدمـا فقـدت سـاقي وفقـدتُ وظيفـتي الـتي أعطتـني قيمـةً داخـل المجتمـع، ونَزَعتهـا مـنِّي فـور خروجـي منهـا مُرغمًـا. لـم أسـتطع كتابـة أيِّ شيء، وأحسسـت بإنهـاك كبـير بعدمـا واظبـتُ عـلى فعـلٍ لـم أكـن أفكـرُ فيـه يومًـا مـا، وبقيـت وحـدي أقـضي جُـلَّ يومـي كسـير القلـب محطَّـم الشـعور، أرى قدمًـا بلاسـتيكية سـتلازمني مـا تبقَّـى مـن العمـر. أسـديتُ خدمـة كبـيرة لوطـنٍ لـم يعـتنِ بي عندمـا احتجـت إليـه. وعرفـتُ بعـد كلِّ هـذا أنَّ في المجتمـع، بـكل مكوِّناتـه، خطـأ كبـير وجـب تصحيحـه، وهـو ذلـك الـشرُّ الـذي بداخلهـم. واكتشـفتُ أنَّ هـؤلاء المغاربـة يتزلَّفـون للمظاهـر. إنَّهـم فعـلًا حربائيـون.

كلَّمـا قـرأتُ قليـلًا تترسـخ في ذاكـرتي عبـارة أو عبارتـان، وتراكمـت الجمـل والكلمـات في ذاكـرتي، حـتى كوَّنـتُ حقـلًا لا بـأس بـه، سـيُمهِّدُ لي الطريـق لنسـج خيـوط قصَّـة أو مقـال. واصلـتُ العمليـة، وانفتحـت عـلى تجـارب أدبيـة مرموقـة، عربيـة كانـت أو عالميـة. بـدأت رويـدًا رويـدًا أكتـب مـن صفحـة إلى صفحتـين أرسـمُ فيهـا خيـوطَ مهنـتي والحـادث الـذي صرتُ بسـببه روحًـا بـلا جسـد، روحًـا هائمـةً في الضيـاع. رسـمتُ لوحـاتٍ بسـطور، جـاد بهـا قلـبي المكسـور، فنالـت استحسـاني، وأيقنـت أن

أسلوبي قد تعافى. أنا أكتبُ لنفسي فقط، ولهذا لم أُطلِع أحدًا على ما كتبتهُ. أقرأ وأكتب. المهم أنني أقرأ، ولستُ مهتمًّا بما أكتب.

كلَّما كتبت اتَّسعت رؤيتي. طَفَتَ في ذهني خيوط وأفكار جديدة كما تطفو الشَّوائب في بركةٍ آسنة. خامرتني فكرة كتابة رواية، أتناول فيها الملفات التي كُلِّفتُ بمتابعتها، وأعتذر فيها لأولئك الشَّباب الذين تسببتُ في حرمانهم من عملٍ محترم، وضيَّقت الخناق عليهم، وكم من شابٍّ وشابة تسببتُ في الزَّج بهم في سجون التنكيل والتعذيب السيئة السمعة. هذه كلُّها أفكار راودتني. لم أستطع كتابتها. خِفْتُ خوفًا كبيرًا. مزَّقت وأحرقتُ كل ما كتبت. الموظفون في مهنتي يشمُّون الأفكار التي تتراكض في الذِّهن. لا مجال للمغامرة إذًا. كسَّرتُ قلمي وأحرقتُ أوراقي. ونسيتُ فكرة الكتابة، بعدما خطر على بالي عنوانها: ليلةُ الخفافيش. نظرتُ إلى ساعتي اليدوية القديمة التي تآكلت بقوَّة الزمن، شغَّلتُ المذياع، وإذا بي أتصادف مع أغنية لأيقونة الفنِّ العربي محمَّد عبد الوهاب: «لا تكذبي إنِّي رأيتكما معًا». ونسيتُ فكرة الكتابة مُجددًا.

توالت السنون المريرة، وقدمي البلاستيكية ما زلت تلازمني.

اعتزلت القراءة وما قد تُفرزهُ من سطور ستجرُّ عليَّ ثقل الماضي. بدأ طنينٌ حادٌّ يصول ويجول في رأسي، ونسيانٌ كبير يتربَّص بذاكرتي. أنسى موضع هاتفي حتى فرغت بطاريته. ونسيت التلفاز المركون في الغرفة المجاورة لغرفة نومي، فقد مضى زمن على آخرِ مرةٍ شغَّلته. لقد نسيته كما نسيت عمتي وزوجها. غابت أشياء كثيرة عن ذاكرتي التي لم تعد تقوى على التذكُّر، لكن ذلك الحادث المشؤوم، لم يفارقها يومًا. لا شكَّ أن تلك الجروح الَّتي غزت رأسي في أثناء الحادث تسبَّبت لي في كلِّ هذا. قاومتُ النِّسيان ببسالة كبيرة. لكن قدرة المقاومة بدأت تضمحل. لم أفارق بيتي لشهور. أطلبُ من حارس العمارة أن يجلب لي حليبًا وخبزًا أسدُّ به رمقي بعدما فقدتُ شهية الحياة ولم أعُد آكلُ بشرهٍ كما كنت. لقد تبخرت أحلامي في لحظة غاب فيها التركيز عني، ذهبت مهنتي أدراج الرياح وأخذت معها تلك الملفات المنهكة، لم أعُد أعرف حتى من أكون، نسيت زملائي الَّذين رحلوا من دون وداعٍ يليقُ بصداقتنا مثلما نسيت أني أدخن.

حلَّ الوداع، فانطفأ كلُّ شيء.

الموتُ لا يُوجعُ سوى الأحياء

كانـت الطيـور مُحلِّقـة في السـماء ترمـي ببصرهـا الأرض باحثـةً عـن فتـات خـبزٍ أو حبـوب تناثـرت هنـا أو هنـاك في غفلـة عـن مشـتري الأكيـاس. لـم تعـد تُخيفهـا الفزَّاعـات ولا مـا يبتكـرهُ الإنسـان ليُرهبهـا. اعتـادت حيـاة البـشر، وسـئمت مـن أفعالهـم العُدوانيـة تجاههـا. شُـقَّت السـماء بخيـوطٍ متَّصلـة مـن المـاء، كان المطـرُ ينهمـرُ كشـلَّالٍ هـادر. الفـرحُ مـرادف لركـض الغيـوم في السـماء، إلى أنْ تُعتـصر حـتى تطلـق مـاءً يبعـثُ برائحـة الـتراب، ويُنعـشُ شـجرة الرُّمـان الـتي غرسـتها جـدتي في ركـنٍ قـصيٍّ بمنزلنـا، ويُخلِّـف لونًـا محمِّـرًّا يعلـو وجـوه النَّـاس مـن شـدَّة الغبطـة والانتعـاش. تفرَّقـت السـحب معلنـةً عـن شـمسٍ دافئـة بسـطت نورهـا عـلى الأرض، ووقفـت متجـبرةً في السـماء.

حينها تعالى إلى أذني صراخ الأطفال وهم يلعبون ويحفرون الأرض بعدما أصبحت رخوة، واكتسح الماء ترابها. التحقت بهم وتجمهرنا حول ضايات الماء الصغيرة نرى فيها ملامح وقسمات وجوهنا المتطلِّعة إلى مستقبل يحتضننا.

ضياءُ الشَّمس أغرق القرية في النُّور. المطر ومخلَّفاته وحدها قادرة على بعثِ الأمل والسعادة بداخل كلِّ إنسان مهما كانت ظروفه. أشحتُ بصري عن ضاية الماء، ورمقتُ أمِّي تحملُ عصًا طويلة تتوعَّد بالضرب على فخذيَّ، أو قدميَّ، أو بطني. دائما تُوصي إخوتي بضربي في أيِّ مكان باستثناء رقبتي وما يعلوها. اعتمرتُ نعلي ولُذتُ بالفرار. خفتُ من ألم العصا الذي يمتزجُ ببرودة الطقس فيُخلِّفُ ألمًا لا يُطاق البتة.

تركتُ من هم في مثل سنِّي خوفًا من أمي. عدت زهاء ساعة أو ما يزيد عليها بقليل. لعِبتُ واستمتعت بجو صحو بديع، جوٌّ يستحقُّ لفتة انتباه وتدبُّر في إبداع الخالق. قرَّر ياسين، الذي لطالما تقاسم معي مقاعد الدراسة، أن نذهب إلى أحد الحقول الفلاحية القريبة من منازلنا وأن نقطف ما جادت به أشجارها من بُرتقالٍ وتفاح. أومأت برأسي موافقًا. ذهبنا رفقة بعض الأصدقاء الآخرين. سببُ سرعة اتفاقنا،

وهـو أنَّ جـل العمّـال في الحقـول لا يعملـون حينمـا تمطـرُ السـماء، ومـن ثَـمَّ فجـلُّ هـذه الحقـول تكـون شـبه فارغـة باسـتثناء حرَّاسـها الـذي يشـتغلون ليـلًا نهـارًا حـتى لا تعبـث بغلَّتهـا أيـادي الغربـاء والمتطفِّلـين، وأحيانًـا خوفًـا مـن سرقـة لـوازم الكهربـاء الـتي تكـون في غالـب الأحيـان باهظـة الثَّمـن.

وصلنـا فوجدنـا البـاب مقفـلًا، وكلـبٌ شرس في الداخـل ينبـحُ دون توقـف بعـد أن شـمَّ رائحتنـا غـير المألوفـة. ابتعدنـا عـن البـاب فقفزنـا مـن ثغـرة شـوك، ودخلنـا نمـشي ببـطء، لا يُسـمع إلَّا هسيسـنا، إذ لـم يتفـوه أحدنـا بصـوتٍ جهـوري قـد يثـير انتبـاه الحـرَّاس. الحـرَّاس إذا ضبطـوا أحدهـم متلبسًـا بقطـف شيء، حـتى لـو كان يتضـوَّر جوعًـا، فإنَّهـم يسـتمتعون بتعذيبـه ومعاقبتـه وتقديمـه لمالـك الضيعـة، مسـتغلِّين فرصـة سـانحة لتلقِّـي عبـارات التنويـه والإشـادة، وقـد ينتهـي الأمـر بالزيـادة في أجورهـم.

توغلنـا وسـط الأشـجار، نقطـفُ مـن هـذه الشـجرة ونضـع ثمارهـا في جيـوب سراويلنـا وفي قمصاننـا، ونـأكلُ مـن تلـك. كانـت الضيعـة زاخـرةً بالثِّمـار. شـعرتُ أنَّ قلـبي سـيثب خـارج أضلاعـي مـن فـرطِ القـوَّة الَّـتي يخفِـقُ بهـا. لـم أعـد قـادرًا عـلى التحمُّـل، لا سـيَّما وأنَّ الشَّـمس بـدأت في توديـع يـومٍ ممطـر غيَّبهـا بسـبب

السـحب الكثيفـة. بـدا لي الحقـل موحشًـا، واسـتشرى رعـبٌ في بـدني، ورعشـة بـاردة تـسري في جسـدي. امتـلأت أقدامنـا بالوحـل، وتبلَّلـت ثيابنـا بسـببِ قطـرات المـاء البـاردة العالقـة في أوراق الأشـجار. مشـينا قليـلًا فكانـت المفاجـأة، حدجـتْ عينـاي الجاحظتـان رجـلًا مسـتلقيًا كجنـديٍّ خـارت قِـواه عـلى أرض المعركـة. بـدا لي في البدايـة كحـارسٍ مـن حـرَّاس الضيعـة المعتوهـين. قلـبي وَجِـلَ، والـكلُّ اجتاحـهُ دبيـبُ الخـوف. بـدأوا يتراجعـون دون أن ينبسُّـوا بكلمـة. بصـوتٍ مرتجـف حانـق قلـتُ:

ـ إنَّـه لا يتنفَّـس، انظـروا إلى بطنـه. إنَّـه ثابـت ومسـتقر. ربمـا قـد مـات.

تحسسـتُ جبيـني براحـة يـدي، كان ينضـحُ عرقًـا أفـرزه الأدرينالـين بسـبب خـوفي الزائـد. في صمـتٍ رهيـب، وبخطـواتٍ جـدٍّ هادئـة، اقتربنـا منـه فصُدمنـا لهـول المشـهد الَّـذي ظـلَّ راسـخًا في ذاكـرتي إلى حـدود كتابـةِ هـذه الأسـطُر. أتطلَّـعُ إلى وجهـه المُكتسي بالتجاعيـد فتتبـدى لي دروبُ الحيـاة. لـه وجـه دائـري، ضخـمُ الجثـة، ولحيـة كثَّـة، أصلـع الـرأس، ميِّـتٌ ومـضرجٌ بالدمـاء. ربَّمـا قُتِـلَ في ليلـة الأمـس الماطـرة. أطفـالٌ صغـار في عمـر الـورد مثـل أزهـارٍ ربيعيـة يانعـة، يـرون مشـهدًا كهـذا.

اتفقنا ألَّا نخبر أحدًا، وأقسمنا وأعطينا الوعد دون الإخلال به. دلفتُ إلى البيت وأنا شارد الذهن، وسيناريوهات تنسج في ذهني، وأفكار عدَّة تطوف ببالي محدثةً رجَّة كبيرة بداخلي. لمَّا رأتني أمِّي توعدتني بأن تبرحني ضربًا، فلم أُعِرها اهتمامًا، فتفاجأت لأمري، واقتربت مني، والليل حينها قد أبسط قبضته على السماء، والهواء كان باردًا، وأنا أرتجف، وأحملُ في جيوبي برتقالتين وتفاحة. وأحفر الأرض بعيوني المندهشتين. بقيتُ على الحال نفسها حتى تلقَّيتُ صفعةً من والدي، صفعةٌ أفاقتني من تيهي الكبير.

رأيتُ الجثث الهامدة في الأفلام التي تتناولُ قصص الحروب التاريخية، أو التي سلَّطت الضوء على تصفية الحسابات؛ متطرِّقة إلى جزءٍ مطمور من التاريخ، وهو تاريخ الاغتيالات السياسية التي راح ضحيَّتها شبابٌ يانعون، أو رجال رفضوا الانصياع لتعليمات تتنافى كليًّا مع مبادئهم وأيديولوجياتهم التي تربوا عليها وتشبَّعوا بها حدَّ النخاع. اليوم كُتِبَ لي أن أرى جثة رجلٍ ميِّت. يا له من قدر. لم أستطع النوم تلك الليلة. تجمَّعت السحب وبدأتِ السماء ترسلُ مياهًا باردة تحفرُ الأرض مصدرةً صوتًا ارتاح له قلبي. فتحتُ باب الغرفة، دون إشعال مصباحها، وبقيت جانب الباب أسمع

صوت حبَّات المطر تداعبُ الأرض، وبرقٌ يُخترق السماء في جو ربَّانيٍّ مهيب. قُبيل الفجر بقليل غفوت، ولم أستيقظ إلَّا بعد أن سمعتُ أمي توقظني وأنا نائم قرب باب غرفتي مباشرةً. نسيت أنَّه يوم الإثنين؛ يومٌ عند غيري، على الأرجح، ثقيل على النَّفس وكم تمنَّيت أن يُحذف من اليومية. الإثنين هو سليل أيام الآحاد الكئيبة.

دخلتُ القسم ورميتُ زملائي الذين حضروا الواقعة بنظرة اندهاش. كانوا مثلي مشتتي الذهن، مفزوعين. جالت في خاطري هواجس عدَّة. على رأسها هاجسُ رؤية دركيٍّ يسألني بنبرته الحادَّة. مرَّت ساعات ذلك اليوم ثقيلة كالحجر. فور خروجنا اجتمعنا نحن الخمسة وتضاربت أفكارنا في نقاشٍ حاد. بين من فضَّل إخبار أفراد أسرته لأنَّه لا يقوى على كتم سرٍّ كهذا، وبين من فضَّل التزام الصمت، وأنا كنت من هذه الفئة. الصمتُ حكمةٌ متاحةٌ لمن يشاء. وما هي إلَّا ساعات قليلة حتى ذاع صيتُ الخبر في جلِّ أرجاء القرية بسرعة كبيرة، كسرعة النَّار في نشارة الخشب، وحجَّ أهل القرية إلى الضيعة المقصودة، وتعالت الأصوات المنددِّة بهذه الجريمة النَّكراء. حضرت الجهات المختصَّة، تتقصى ظروف ومُلابسات الحادث. سيخوضون باستفاضة في الأسباب

والدوافـع الـتي أدَّت بالجـاني إلى ارتـكاب هـذا الفعـل الجُرمـي الشَّـنيع.

فاتحـتُ أمـي في الموضـوع بسلاسـةٍ لغويـة دون أن أبـدي أيَّ ارتبـاك. وأخـبرت والـدي أيضًـا، وانفجـر في وجهـي كالـبُركان، وهـمَّ بصفعـي وضربي، لـولا تدخـل أمـي. علتـه عـلى انزعاجـه هـو خوفـه عـليَّ مـن أي متابعـة أو تحقيـق قـد يجـرُّ عـليَّ، برفقة زمـلائي، القيـل والقـال، وأنـا مـا زلـتُ في عمـر الزهـور. فنحـن المغاربـة نبـدعُ في تقـصِّي الأخبـار، ونكـون أكـثر إبداعًـا في ليِّ ذراع الخـبر وإضافـة بعـض التوابـل والبهـارات حـتى يسـتطيب (الخـبر) للجميـع وينـدرج ضمـن حقـل الأكشـن المُشـوِّق.

إذا عدنـا إلى الأماكـن نفسـها فمـن يُعيـد إلينـا الرِّفـاق؟ هكـذا أقـول في قـرارة نفـسي كلَّمـا عـدتُ إلى القريـة، وأمـرُّ مـن الأزقـة نفسـها، وأجلـس تحـت الجـدار الطيـني، وأشـاهد شـموخ صومعـة المسـجد الواقفـة بعـزَّة منـذ عقـودٍ خلـت، أرى الحقـول الفلاحيـة وهـي تتـلاشى الواحـد تلـو الآخـر، وأرى زحفًـا عمرانيًّـا رهيبًـا أقـبر أراضي زراعيـة كانـت مرتعًـا مُريحًـا للـكلاب الضالَّـة ولـكل مـن قادتـهُ سـبل الحيـاة إلى قريتنـا، فيفـترش ترابها في سـكينةٍ وطمأنينـة منقطعـة النَّظـير، ويسـتظلُّ بظـل النخـل الباسـط قاماتـه السـامقة. لـم يـدُم شـموخه طويـلًا فسرعـان مـا

اُجتثَّت جـذوره، ثـم إن الأماكـن الـتي لعبـتُ فيهـا وارتميـتُ في حضنهـا تغـيَّرت واختفـت معالمهـا.

الرجـل المقتـول رحـل إلى مثـواه الأخـير. عُـرِفَ قاتلـه الـذي اعـترف بـأنَّ سـبب قتلـه للضحيـة بمديـة، يعـودُ إلى سـنوات التسـعينيات، عندمـا كان الأخـير سـببًا لسـجنه ظلمًـا بسـبب جريمـة لـم يرتكبهـا. أمـضى عـشر سـنوات خلـف القضبـان. كان دائمًـا يتطلـع إلى اليـوم الـذي سـيعانق فيـه الحريـة ويتملَّـص مـن الأغـلال. لـم تفـارق فكـرة الانتقـام يومًـا خيالـه، فكـرة سـاذجة أعادتـه سريعًـا إلى زنزانتـه الـتي أَلِـفَ العيـش فيهـا. جـروح المـاضي لا تُنـسى. مشـهد الضحيـة وهـو مرمـيٌّ وسـط أشـجار البرتقـال أبى أن يُمحـى مـن ذاكـرتي. أُلقـيَ القبـض عـلى القاتـل بعدمـا فـرَّ إلى شـمال البـلاد، هنـاك بطنجـة، الَّـتي تعـجُّ بالكثـير مـن الحيـاة، سـيُضبط وهـو يتخفَّـى خلسـة وسـط الـركاب في حافلـة متشرذمـة آمـلًا في الوصـول إلى حـدود سـبتة حـتى يتمكَّـن مـن استنشـاق هـواء الحريَّـة العليـل عـلى أراضي الضفـة الأخـرى، الـتي يتمـنَّى كل مغـربي تـدبُّ فيـه الحيـاة أن يبلغهـا ولـو بشـقِّ الأنفُـس.

كـبرتُ وكَـبِرَتْ معـي القريـة كنبـاتٍ بـريٍّ عـلى ضفـاف النَّهـر. ذلـك اليـوم السـيئ تمنَّيـتُ ألَّا يُعـاد، إذ خلَّـف بداخـلي نفسـيةً

مهـزوزة. أمضـغُ الحـسرة كلَّما طفـت ذكريـات ذلـك اليـوم. كلَّما أخـذني شريـطُ الذِّكريـات غرقـت عيـوني في الدمـوع. لـكلِّ دمعـةٍ مُـبرِّر. في الأعيـاد والمناسـبات عندمـا يجتمـع الرِّفـاق يطبـق صمـت مديـد عـلى أفواهنـا كحـزنٍ عـلى مـا رأينـاه.

توالـت السـنون المريـرة تاركـةً هاجـس الخـوف يُعذبـني. نخرتـني ذكريـات المـاضي كمـا تنخـرُ دودةُ القـزِّ ورق العنـب. عـدتُ ذات صيـفٍ، بعـد شـهورٍ قضيتهـا في مدينـةٍ فيهـا مـن التناقضـات مـا تُلفِـتُ نظـرَ الأعمـى، وكومـةٌ مـن الأسـئلة تُحـاصرني يسـتحيلُ الهـروب منهـا. اسـتيقظت ذات صبـاح، أمـدُّ يـدي لأتحسَّـس زرَّ مشـغل المصبـاح فـوق رأسي، تنتـشرُ دفقـات نـور الكهربـاء في الغرفـة بكبسـة واحـدة، أتحقَّـقُ مـن السـاعة، يُشـيرُ عقربـاهـا إلى السادسـة صباحًـا، لا يـزالُ أمامـي متَّسـعٌ مـن الوقـت لأنـام. العُطلـة للرَّاحـة، فـكلُّ عطلـةٍ تتخلَّلهـا التزامـات ومواعيـد مـا هـي بعطلـة. أسـتلقي مجـددًا عـلى ظهـري، أشـبكُ أصابعـي خلـف رقبـتي، أرفـعُ بـصري إلى السـقف، أثبتـهُ، تتَّسـعُ حدقتـا عيـني إلى أنْ يغـشى الرؤيـة ضبـابٌ وهميٌّ. يُخيِّـمُ سـكونٌ ثقيـل عـلى الغرفـة، أتنهَّـدُ بعمـق، شـهيقًا ببـطء ثـم زفـيرًا. تمـرُّ صـور الَّذيـن عرفتهـم طـوال حيـاتي، أسـماءٌ، وجـوهٌ وأصـوات، أنـاسٌ سرقتهـم الحيـاة، آخـرون سـافروا إلى وجهـات مجهولـة،

وجميعهـم يحتشِـدون أمامـي، إنَّـه وقتهـم المفضَّـل للظهـور. أنـامُ مجـدَّدًا فيُصـابُ شريـط الذكريـات الحـادة بكآبـة تعصـفُ بـه هنيهـة. أفيـقُ مجـددًا فأجـد صداعًـا يسـتولي عـلى جمجمـتي فأسـقطُ أسـيرًا للهواجـس وللذكريـات المريـرة الـتي أتوجَّـسُ منهـا.

ضغط الكتابة

خضت مغامرة جدية في الكتابة، وكانت بدايتها سنة ١٩٨٩م. راسلتُ هيئة تحرير إحدى المجلات ذائعة الصيت، بلباقة راجيًا منهم أن تجد المواد المُرسلة طريقها إلى النَّشر. طال الانتظار ولم أتلقَّ ردًّا يفيدُ بقبول المواد من عدمه. أجَّج الانتظار بداخلي القلق، وصرت أشتم نفسي وما أكتب، لأطرح على نفسي سؤالًا لم أجد له جوابًا شافيًا: ما جدوى الكتابة؟ أكتب بعض الترهات المُكتظَّة بالهفوات اللغوية والعبارات العرجاء، وبأسلوبٍ مبتذل. هل أكتبُ لأنال رأي ناقدٍ مغمور قدَّم بعض القراءات لروايات تتأرجح بين الجيِّدة، وبين من نالت هالة كبيرة وروَّج لها القراء الذين قرأوها لشيءٍ واحد هو أنَّ صاحبها تصدَّى للطابوهات بجرأة وثبات دون أن يولي كل العناية للغة وتضاريسها؟ كلُّها أسئلة

تبادرت إلى خلدي حتى خلتُ ذهني سيشبُّ خارج جمجمتي.

نسيت أمر تلك القصص التي بعثتها إلى هيئة تحرير المجلة حتى تصادفت ذات صباحٍ برسالة تشجيعية منهم يؤكدون فيها تمتعي ببراعة أدبية رغم حداثة سنِّي، وزعموا أنني قابل للتطور إذا ما بقيتُ مواظبًا على القراءة، وقد أرفقوا الرسالة بمبلغٍ ماليٍّ محترم. تجشأتُ فرحًا، وشكرتهم بحرارة على جميلهم وثنائهم. منذ ذلك اليوم لم أكتب ولم أبعث لهم بأي جديد.

مرَّت سنة تقريبًا على رسالتهم المحفِّزة التي تقبَّلتها بكسلٍ وخمول. انكببتُ مجددًا على كتابة قصَّة قصيرة موضوعها مستهلك، والفكرة مكرَّرة، بيد أنني أوليتها عنايةً خاصَّة، وقد آمنت بها أنَّها ستنشر كسابقتها. أرسلتها وكلِّي أمل في أنَّها ستجد طريقها للنَّشر، وأنَّها ستقرأ من طرف كاتبٍ يتبوَّأ مكانة متميزة في المشهد الثقافي العربي وستنال استحسانه، وربما سيحتفظ بعدد المجلَّة في خزانته لأنَّ القصَّة نالت إعجابه. انتظرتُ مجددًا، لكنني لم أنسَ أمرها. توصَّلت برسالة حرَّكت خزَّان الأحزان وجعلتني أبتعد عن هذه المغامرة كليًّا. كتبت سكرتيرة التحرير ما يلي: «ارتأى رئيس التحرير أن يبعث لك المكافأة رغم أنَّ القصة، يا للأسف،

لـم تُجـز للنّـشر لأسـبابٍ يطـولُ شرحهـا».

لـم أسـتوعب شـيئًا مـن رسـالتها المقتضبـة، والمكتظـة بالغمـوض، الـتي كانـت كفيلـة بـتركِ هـذه التجربـة الجديـة. مـرَّة أخـرى عـبرت فكـرة نـصٍّ قصـصي ذهـني، وسـارعت بكتابتـه، وفكـرتُ مليًّـا في إرسـاله للمجلـة عـلى أمـل أن يُنـشر. راسـلتهم مجـددًا، وانتظـرت عـدَّة أشـهر، قبـل أن أتفاجـأ بخـبر إقبـار المجلـة إلى الأبـد.

أحلامٌ تتفلسف

ذات صباحٍ بارد وشاهق بالغيم، كانت السماء تدمدمُ بصخبٍ كبير، تألَّمت أمي في مستشفى متشرذم، لفظُ مستشفى لا يليقُ به. المراكز الهشَّة انطلت عليها صفةُ «مستشفى»، وتوهمنا أنَّها حقًّا مستشفيات. تألَّمت ألمًا شديدًا وأخرجتني لهذا الوجود، وأنا أصرخ صراخًا هزَّ كيان تلك الحفرة الميؤوسِ منها.

أشبه والدي لدرجةٍ مذهلة، لنا وجه مستطيل، والعينان ذاتهما، الحاجبان معقودان دائمًا، والأنف شامخ بكبرياء. اختلفنا في شيءٍ وحيد وأوحد؛ والدي له شارب محفوف بعنايةٍ من الطرفين، أمَّا أنا فوجهي عصيٌّ، أبى أنْ تنمو فيه ولو شعرة واحدة. سأبقى أمرد إلى أنْ يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

تعالـت أمـي في السـماء مـسرورة، ووالـدي أحـسَّ بانتشـاء مذهـل، الـكل فـرِح بـولادتي، واسـتقبلوني بأحضانهـم الدافئـة وطبعـوا قُبـلًا حـارَّة عـلى خـذي بـين فينـة وفينـة. يـوم وُلِـدت، شـقت السـماء بوابـلٍ مـن الميـاه، وتهاطلـت الأمطـار بوفـرة مُخلِّفـة جنونًـا وفرحـة هيسـتيرية تجتـاح أهـل القريـة، صغارهـا وكبارهـا.

كنـت أحبـو عـلى قارعـة الطفولـة، أمـشي ولا أمـشي، أسـير ولا أسـير، أتفـوَّه بكلمـاتٍ غامضـة، أقـف ولا أقـف، أنـام ولا أنـام، لـم أكـن أسـمع شـيئًا سـوى مناغـاة أمـي. نَمَـت أظافـري، اسـتطعت الوقـوف، أتلعثـم في الـكلام بتطـوُّرٍ شـبه ملحـوظ نِلـت عليـه وافـر التصفيـق والتشـجيع. كلَّمـا زاد عمـري نزعـت الحيـاة عـنِّي قنـاع الطفـل المهـذَّب. لـم أعـد مـلاكًا بسـبب تصرفـاتي، الـتي تبـيَّن، وبشـكلٍ جـلي، الخبـث والـشرَّ الـذي بداخـلي. الخطـأ الـذي عـلى الإنسـان أنْ يُصحِّحـهُ هـو ذلـك الـشر الَّـذي بداخلـه. وَلجـت المدرسـة، واسـتمتعتُ بتعذيـب الأسـاتذة بتصرفـاتي المزعجـة. تديـر الأسـتاذة ظهرهـا وهـي تـشرح لنـا كيفيـة تجـاوز الأخطـاء الإملائيـة الـتي لـم أسـلم مـن الاكتـواء بجمراتهـا إلَّا في السـنة الأولى مـن ولوجـي للجامعـة. كلمـا أدارت ظهرهـا لنـا، أضربهـا بالطبشـور، أو بغطـاء قلـم

جـاف، أو أيِّ شيءٍ كان في يـدي دون اكـتراث للعواقـب الـتي تكـون في غالـب الأحيـان وخيمـة. وهـي تسـتدير، لمحـتُ عينيهـا تضجَّـان بالارتبـاك، تـنزع نظارتهـا، ونعتـت الـذي ضربهـا بالحيـوان والمُتخلـف، وأنَّ أمـه لـم تحسِـن تربيتـه.

لـم يسـتطع أحـد أن يخبرهـا مـن الفاعـل، لأنه لـو تجـرأ وأخبرها سـأسرق محفظتـه خلسـة وأرميهـا في أول بـئر أصادفـه. حُرمـتُ بسـبب سـلوكاتي مـن وجبـة المطعـم المـدرسي. وكتعبـيرٍ عـن غضـبي الشَّـديد، رميـتُ المديـر بكلمـاتٍ فجَّـة، كان لسـاني حينهـا مسـدولًا يقطـرُ لعابًـا. طأطـأت الأسـتاذات رؤوسـهن خجـلًا، لمَّـا سـمعن تلـك الكلمـات البذيئـة، مـن المتعجـرف الـذي يهضـم حقوقنـا في اسـتعلاء مجحـف. وفجـأةً شـعرتُ بأصابـع تنغـرس في عضـدي، التفـتُّ مذعـورًا، وبوجـه ممتقـعٍ ومصفـرٍّ، همـس حـارس المدرسـة بفـمٍ رائحتـهُ كريهـة:

ـ أخرج بطاقتك المدرسيَّة.

أجبته وقلبي قد وجل:

ـ لماذا؟

قطَّـب جبينـه غضبًـا، وأشـار برأسـه أن أبتعـد عـن الإدارة. مـضى أمامـي بخطـوات ثابتـة في تجـبُّر كبـير. طلـب مـني مـرَّة أخـرى

بطاقتي دون أن أبدي أي مقاومة، ناولته إيَّاها ببلاهة (بطاقتي المدرسية) وأنا أحدق إلى فمه الذي يطلُّ منه لمعان أسنانه الذهبية. إنَّ الإنسان بطبعه يحبُّ أن يرى الجمال الفتان. تمنيت أن تكون على رأس الإدارة مديرة أنيقة، تلبس ما تشاء من الملابس، بلوزة ذات أكمام قصيرة، وبألوانٍ زاهية، أو تنورة مشقوقة من الجوانب. تضع ما تشاء من مستحضرات التجميل، وأحمر شفاه بلون البلوزة، وهو ما لا تستطيع فعله المُدَرِّسة التي «تُحكِّر» على اللغة بضوابطها وقواعدها. كم من مرة انهالت عليَّ بالضرب بواسطة خرطوم مياه أصفر. كنت أتمنَّى أن تتعرض لحادثة سير، لا تموت، بل تبقى طريحة الفراش مدَّة معينة أنعم فيها بالراحة، ولا أستيقظ إلَّا بعد أن تدسُّ الشَّمس أشعتها المتسللة من النَّافذة في جسدي.

كنتُ قبيحًا، لدرجة أنَّ كل سكان القرية يتذمرون جراء أفعالي الكارثية، سرقتُ بيض الدجاج، كسَّرتُ المصابيح، رميت شاةً بأحجار صماء حتى أُصيبَت بكسرٍ في إحدى قدميها. توقظني أمي في الصباح، أستيقظ منزعجًا، لأنَّني قضيت جلَّ أطوار الليل وأنا أرى ما لا يراه أحد. الليل يتمدد كعجوز هرم يقفُ على شفير الموت، أرى فيه أبوابًا كثيرة وكأنَّ أحدهم

أوصدهـا بأقفـالٍ صدئـة، يصعـبُ فتحهـا. أرمـق مـن نافـذة غرفـتي سـماءً لا تحـوم فيهـا العقبـان، وأسـلاكًا كهربائيَّـة خاليـة مـن الغربـان، كنـت أرى البعـوض تغـرزُ خراطيمهـا الواهنـة في وجهـي لتقتلـني بالحمَّـى الشـديدة، في حـين ألمـح أشـياء لا يلمحهـا غـيري. الفـئران والعقـارب لا تقتحـمُ غرفـتي، والثعابـين الـتي تمتهـنُ الصيـد والبحـث عـن المـاء غائبـة عـن ناظـري، حتى ذلـك القـط الوديـع الـذي تسـهر أختـي عـلى تربيتـه والعنايـة بـه قـد اختفـى. لقـد اعتـدتُ رميـه بحـذائي والبصـق عليـه بسـبب كرهـي للحيوانـات. أقـصُّ مـا رأيتـه عـلى أمـي فتقـول لي: إنَّهـا مجـرد كوابيـس يـا بُـني. كانـت الأحـلام، وفي كل ليلـةٍ، ثقيلـة كالحجـر. فتسـاءلتُ قائـلًا:

ـ هـل كانـت تلـك الأحـلام مثـل أسراب الحمائـم، الـتي تمـرُّ سربًـا سربًـا فـوق رأسي قبيـل يقظـة الشَّـمس فـلا أسـمع سـوى حفيـف أجنتهـا المُتدافِعـة؟

أرهقتـني تلـك الكوابيـس الثقيلـة، فأصابتـني بنوبـةٍ حـادة. كانـت تلـك الليـالي كاسـفة كئيبـة، نـاء فيهـا قلـبي بـأسى دفـين. وفي كل يـوم، وأنـا في طريقـي إلى المدرسـة، أصـبُّ جـام غضـبي عـلى كل كائـنٍ أتصـادفُ معـه، أتبـوَّلُ عـلى الحـشرات الصغـيرة، أرمـي الدجـاج بالحجـارة، أسـبُّ كلَّ امـرأة خاصمتـني عـلى فعلـتي، أدقُّ

بابًا خلسةً، وإذا تكلَّم أحدهم متسائلًا:

ـ من الطَّارق؟

أُجيبه بنبرةٍ ساخرة:

ـ أمُّك التي لا تملكُ أسنانًا.

وأفرُّ هاربًا إلى وجهةٍ لا يعلمها إبليس.

بدأت الشَّمس تتجبَّر في السماء مطلقةً أشعتها الساخنة، معلنةً بداية فصلٍ كنَّا ننتظرهُ بفارغ الصبر. في أحد أيام الصيف الحارَّة، دفعني طيشي إلى سرقة دراجة هوائية وهي مركونة أمام المسجد. تسللتُ إلى المقصورة دون وضوء، اتكأت على حائط المسجد دون أن أثير انتباه أحد، فكل من رآني يكفهرُّ وجهه. صرتُ مرادفًا للمصائب. بدأوا يصلون في خشوع مزيَّف، ثم خرجت في هدوء تامٍّ. أخذت الدراجة، ولأنني قصيرُ القامة، لم أستطع وضع شرجي على مقعدها، تعذبتُ في البداية قبل أن أعتاد ركوبها، أقودها بانتشاءٍ كبير، واجتاحني دبيبُ الفرح. ابتلعت الجبال الشمس الدافئة في صمت، وبدأ الظلام يتمردُ وينتفض، وأحكم قبضتهُ على الزمن الملتوي، وعليلٌ من نسمات هواء يهبُّ عليَّ. هذه الدراجة لم يمضِ على شرائها سوى أسبوع، أي إنَّ صاحبها

يُحبهـا حبًّـا جمًّـا، فلـو عرفـني فسـيقتلني ويُقطِّـع جثـتي إلى أشـلاء.

اسـتحليتُ ركوبهـا والهـواءُ البـارد يخـترق سـترتي ليسـتقرَّ في ضلوعـي، واسـتشرى انتشـاء بداخـلي. انتشـاء مـا لبـث أن انتفـى. فرميـتُ الدراجـة في حفـرة كبـيرة. عـدتُ أدراجـي، وبشـائرُ السـعادة تُطالعـني، فوجـدتُ أمـي تنتظـرني قـرب بـاب المـنزل تحمـلُ عصـا كبـيرة، لـو أمسـكتني حينهـا لضربتـني حـتى توشـك أن تُزهِـقِ روحـي. أمـي المسـكينة كانـت تـردِّد دائمًـا جملـة لـن أنسـاها مـا حييـت:

ـ النَّاس يلدون أطفالًا وأنا أنجبتُ «جنيًّا» وفي يده «مسن» .

سِفرُ الذَّاكرة

تطـولُ الطريـقُ كطـولِ المـوت الممتـد إلى الأعنـاق، الرابـض في القلـوب، يحيـلُ الـدمُ مـاءً والعـروقُ مجـاري «الـواد الحـار»، والنُّطفـة الـتي أخرجتـك لعنـةً مـن السـماء. وحـدك تسـيرُ والذاكـرةُ تـنزف، تسـيرُ مترنِّحًـا لا تـدري مـتى ابتـدأ طريقُـك، ومـتى سـينتهي.

أنـا هنـا أسـيرُ بخطـواتٍ عرجـاء وهـي هنـاك تغسـلُ أقـدام النَّازحـين، وتسـتقبلُ جثامـين العابريـن الذيـن لـم ينتـهِ عبورهم بعـد. الخطـوة العرجـاء تطـوي الطريـق، وليـتَ الريـح تدفعهـا، ليتهـا تحملـني برقًـا ورعـدًا، يـدُكُّ بحـر الظلمـاتِ القائـمِ بيننـا ويُطـلُّ الـرب مـن عليائـه، يقـول كـن، ولا تكـن. ويسـألونك عـن المـوتِ الرابـض في القلـوب، سـأفجرهُ سـطورًا في هـذا البيـاض / الفـراغ. سـأقبضُ زمامـك أيَّتهـا اللغـة المتمـردة، وأطيـح بـك مـن

عليائك، وسينظرُ إليكِ البياضُ ساخرًا متحديًا كالموت: أبدًا لنْ تديرَ إليك اللغة مؤخرتها!

هي لعنة تطاردني الآن، ستسحقني على وَقْعِ هذا السُّكون البليد. يمتدُّ بصري إلى السماء، النُّجوم ترتعشُ والليل يتعنترُ. أجلسُ أمام عتبةِ الدار، أفركُ يدي، أبحثُ عن دفءٍ لا وجودَ له، أغمضُ عيني وأحلم. الوهمُ يغزوني، يَغتالني، يسكرني، فأسيرُ مترنِّحًا، دون هدف، من زقاقٍ إلى آخر، لا أدري كم مضى من الوقتِ ولا كم قطعتُ من الطريق، كل ما أعرفهُ أنَّه لم يكن والدي، الذي ماتَ وسبَّني وشتمني، كان شيئًا آخر، أنا متأكد. والدي ماتَ منذ قُرون، وبيدي هاتين دفنته، أستحضرُ الصورةَ الآن كما لو حدثت بالأمسِ القريب، حملتهُ بين كتفي، أخذتُهُ بعيدًا عن المدينة، حفرتُ حفرةً عميقة وانتهى كلُّ شيء، لا، لم ينتهِ، نظرته المُشرئبة من أعماقِ الحفرة سهمٌ قطعني، كانت تلعقُ غدري وخيانتي.

لا لمْ أقتله، أنا لستُ خائنًا ولا قاتلًا، وأسرعت خطواتي العرجاء، أحاولُ الفرار من الوهم، وأنا الوهمُ الكبير، يتملَّكني دوار غريب، ويتثاقلُ جفناي، والطريقُ تتراقص، الكلابُ تجري ورائي، وأنا أجري رغم كلِّ شيء. ألهثُ وأشربُ

عـرقِ المالـح، وأمـدُّ بـصري إلى العـدم الممتـد أمامـي، تُدرمـني الـكلاب، تعضـني، تنهـشُ لحمـي، أصرخُ مسـتغيثًا، متألمًـا، أتسـاقطُ أمامهـا عاجـزًا، أمـدُّ يـدي لأخنقهـا، لأمـزق الظـلام اللَّامنتهـي، أقـومُ مـن قلـبِ الظـلام كالميِّـت يغسـلني عـرق محمـوم، تتلقـاني بنظرتِهـا الآسرة، تفتـحُ ذراعيهـا وتَضمـني.

تسألني قائلةً: ماذا بك يا ولدي؟

أجهـش بالبـكاءِ، تضمـني إليهـا، أطمـئنُّ إلى صدرهـا، فأحـاولُ نسـيانَ كلِّ شيء إلَّا هـي، أغمِـضُ عيـني فأشـعرُ بأنفاسـها تدنـو مـني، تهـوي عـليَّ بشـفتيها، تعضـني حـتى تدمـي شـفتي، أتألـم، أعتـصرُ نهديهـا فيخـرجُ حليبهـا خانقًـا كالنِّفـط، يداهـا حيـة تسـعى في شـوارعِ جسـدي، تلدغـني بـكلِّ مـا أوتيـت مـن قـوَّة. أحـاولُ فتـحَ عيـني، أصرخ، ليسـت هـي، كانـت غولـة عظيمـة تمتـصُّ دمـي، أصرخ بـكلِّ طاقـتي، أحـاول تمزيـق الحلكـة الـتي تغتالـني.

أفتـحُ عيـني فجـأةً، قلـبي ينبـضُ بقـوة والعـرق يتصبـب مـن كل أنحـاءِ الجسـد، ورأسي يـكادُ ينفجـر، أشـعلتُ سـيجارة، سـحبتُ منهـا نفسًـا عميقًـا وتريثـت قبـل نفـث الدخـان، كنـتُ أريـده أنْ يحـرق كلَّ شيءٍ بداخـلي، أريـده أنْ ينـتزع تلـك الـروح السـاكنة

بـين الضلـوع. وأعـودُ إلى قلمـي، فهـو أنيـسي وشـهادة حيـاتي. بـه أفتـضُّ بـكارةَ الفـراغ والليـل.

تداخلـت الصـور والأحـداث، وتكاثـفَ الدخـان في الغرفـة ورائحـة السـجائر والـشراب، وأنـا أتطلَّـعُ إليهمـا بـين رغبتـين مـن ثقـبِ البـاب الخشـبي الـذي صنعـهُ والـدي مـن أجـودِ أنـواعِ الخشـب، وقـضى في صنعِـهِ أيـام عمـره وشـبابه، وغسـله بعرقـه ودمـه. تفتحـهُ اليـوم عـلى مصراعيـه. وجسـدها الأخضر، أصبـحَ صحـراء بـترول، وأنْـتَ أمـير تحشـو بطنـك بعرقهـا ولهـاث شـهوة العابريـن، وحـين يغـلي الـدم في عروقـك، ويصـمُّ اللهـاث أذنيـك، تفـترعُ البـاب، فتتلقـاك الهـراوات، وتُبـادرك القيـود، فتلجـأ إلى أقلامـك وأوراقـك، تحشـو الفـراغ بكلمـاتٍ ملغومـة غـير قابلـة للانفجـار، واليـوم، حـتى هـذه الكلمـات المجنونـة تفـرُّ مـني، تتركـني وحيـدًا أتجـرَّعُ المـوت، وأهـربُ مـن الهـراوات بخطـواتٍ عرجـاء تطـوي الطريـق طيًّـا، أسـيرٌ لوحـدي دون خضـوع للزمـان والمـكان، بـصري يمتـدُّ إلى العـدم، شيءٌ كالجنـونِ ينتابـني، لا أدري مـاذا حـلَّ بي. هـل هـو اشـتهاءُ الرحيـل؟ أم هـي رغبـةٌ في إثـارةِ الآخريـن؟ أود لـو أصرخ في وجوههـم وصرخـتُ في وجهـه: لا تنظـر إليَّ هكـذا، هـل كنـت سـكرانًا؟ لا أدري.

كلُّ مـا أعرفـهُ أنِّي لـم أقتلـهُ ولا أحـد يتهمـني بقتلـهِ، حاولـتُ الفـرار مـن هـذه الأوهـام، أشـعلتُ سـيجارة سـحبت منهـا أنفاسًـا وسرتُ في طريقـي، الممـل، تعبـتُ مـن المـشي، الـبردُ والتعـب أرغمـاني عـلى التوقـف هنيهـة. حاولـتُ أنْ أشـغل نفـسي بالنظـر إلى الوجـوه الـتي تمـرُّ أمامـي، وتتبـع المؤخـرات الضخمـة، والصـدور الناهضـة، أحـاول أنْ أوقِـظَ الجانـب المنـسي مـني. وحـين وقفـتُ أمامهـا ـ تلـك المـرأة مترامـية الأطراف ـ لـم يندفـع الـدم في عـروقي، لـم يخفـق القلـب. كان جامـدًا كالمـوتِ، أمسـكت رقبـتي ورمتـني خـارج غرفتهـا وقالـت: أنـا لا أسـتقبل غـير الرجـال. تهاويـتُ عـلى الأرضِ وتسـارعت الدمـوع رغـم أنفـي، أنـا سـيدُ دويلـةٍ يـا والـدي فهـل تعلـم؟

ومـرةً أخـرى تطـردني لعنـةُ نظرتـه، هو الوهـمُ ولا شـك، وقفتُ، لا أدري أيـن وقفـت، ازدادت حـدةُ الوهـنِ والـدوار، وشـعرتُ برغبـةٍ في الصعـود إلى الأعـلى، إلى السـماء، وسـأهوي إلى الأسـفل جثـةً هامـدة لا تحـرِّكُ سـاكنًا. وأنـا أحلِّـقُ في السـماء بأجنحـةٍ متكـسرة، عينـاهُ تطـاردني - أبـدًا لـن تقبـلَ الخيانـة والمهانـة - تنطلقـان مـن أعمـاقِ الحفـرةِ وتجذبانـني إلى الهـوَّةِ السـحيقة، فأتهـاوى في مـكاني، السـماء غاضبـةٌ، والدنيـا تـكادُ تختنـقُ برائحـةِ الطـين والمـوت. وأنـا سـأصبحُ جـزءًا مـن الأسـفلت، يجـري دمـي

عليـه ليصـبَّ في مجـاري الـواد الحـار. السـماء حزينـةٌ وشيءٌ كالرعـد يعلـن بدايـة تسـاقطِ الغيـث ليضـع حـدًّا للجفـاف الـذي أمـات الأرض، يتسـاقطُ المطـرُ، يختلـطُ مـاءُ المطـر بدمـي، يغسـلني، يفجِّـرُ رائحـةَ المـوتِ مـني ومـن الأرض؛ أُغمـضُ عيـني وأستسـلمُ للقطـرات النازلـة مـن السـماء، انـزل أيُّهـا المطـر واجرفـني مـع الأوحـال، إنِّي أمـوت، إنِّي أمـوت.

يختلـطُ المـاءُ بالـدم، بالدمـع بالذاكـرةِ المثخنـة، وعينـهُ بـاب جحيـم يجذبـني إلى الاحـتراق، وهـي هنـاك تلعـقُ لعـابَ الـزوارِ العابريـن، ترقـصُ رقصـةَ المـوت الأخـيرة، وتحلـمُ برجـلٍ غـير كلِّ الرجـال.

موظَّفٌ ينتظرُ أجرتهُ الأخيرة

كسَدت بضاعةُ الصِّدق في زمن الدِّرهم، وصار معيارُ المادَّةِ يقينُ كلِّ شيء.

في حي منسيٍّ نشأ وترعرع في أزِّقته الضيِّقة المكتظَّة بأحلام أولئك المنحدرين من الطبقة المسحوقة. امتلك موهبة الرَّسم التشكيلي وأظافره لم تنمُ بعد، ولم يملأ الشَّعر شدقيه، ثم إن حُنجرته لم تُطلق بعد ذلك الصوت الحاد المزمجر الذي يُصدرهُ كلُّ من وقف على حافَّة المراهقة. إنَّها مرحلة حرجة تؤثر في جميع جوانب الشاب النَّفسية، العقلية، الاجتماعية والجسمية. فخلالها يبدأ في استشعار نمو عضلات جسمه، فيزيد إعجابه بالمفتولة منها، فيتلذذ باتساع كتفيه، ويتقزَّزُ من رائحة إبطيه المقرفة، وينتشي عندما يُداعب محرِّك التاريخ وهو يتمدد قبل أن ينفجر،

فيُخلِّـف تأنيـب ضمـيرٍ؛ لـم يكـن يقِظًـا قبـل وقـوع الكارثـة، ويصبـح مجـبرًا عـلى أن يتوضـأ الوضـوء الأكـبر. مرحلـة الشـباب عنـد العـرب تنبـني، في مُجملهـا، عـلى فكـرة الجنابـة.

طـوَّر موهبتـه في الرسـم، ونجـح في البكالوريـا، ليُفتـح لـه بـاب التوظيـف عـلى مصراعيـه، ويتحمَّـل عـبء الوظيفـة العموميـة وهــو في عقــده الثَّــاني. ولــج الوظيفــة، وهــو منتــشٍ بأجرتــه الشـهرية الأولى، مُعتقـدًا أن أجرتـه تلـك ستنتشـلُ أسرتـه مـن مُسـتنقع الفقـر والإمـلاق الـذي تأبَّـط شرًّا بـه منـذ أن فتـح عينيـه. أمـضى سـنواتٍ طـوال مدرِّسًـا للغـة العربيـة. توالـت السـنوات وبـدأت ملامحـهُ الشـابَّة تندثـر، وجسـمه الرَّشـيق أخـذ في الاضمحــلال.

العمـر يجـري، ولا يلتفـت وراءه، يتطلـعُ إلى المسـتقبل دائمًـا. تحوَّلـت حياتـه إلى كابـوس بعدمـا تـزوَّج. الـزواج أكـبر خطـأٍ قـد يُقـدِمُ عليـه الإنسـان، هـو خطـأ لا يُغتفـر. اسـتقبلتهُ مُوظَّفـة في البنـك بابتسـامة مرحـة وبأسـنان ناصعـة البيـاض، بسـطت إليـه إجـراءات السـلف، ظنَّهـا بسـيطة، فغـرق في بركـةٍ آسـنة يصعـبُ الخــروج منهــا. تجــاوزت اقتطاعــات البنــك نصــف أجرتــه، فتهـاوت نفسـيته وتـلاشى طموحـه. ومـا زاد الطينـة بلَّـة هـو إنجابـه ابنتـين، في زمـنٍ لا يُشـجعُ عـلى الإنجـاب بتاتًـا.

صار نحيلًا، غامق السمرة، ضعيف البنية، دقيق القسمات، صار أقرب إلى الاختفاء النِّهائي، أضحى شبيهًا بموميـاءٍ محنَّطة. توالت السنين ولم يطرأ على حاله أيُّ تغيير. سلك طريقًا أكثر خطورة من الديون، إنْ لم تكن أفظع منها بكثير، إذ أصبح يرتاد الحانات والملاهي الليلية، يدخن السجائر بشراهة، يتريث قبل أن ينفث دخانها، أحاطت به المصائب من كلِّ حدبٍ وصوب. يعود إلى المنزل ثملًا، فينشب خصام مع زوجته، يسبها بكلماتٍ بذيئة، وأحيانًا يتمادى في غيِّه فيوجه لكمةً إلى وجهها تُخلِّفُ كدمة واضحة المعالم. لم يعد مثالًا للمعلم الذي يُحتذى به. الخمر ومشتقاته هي ملاذه الوحيد، يريد نسيان مشكلاته؛ هو في الأصل نسيانٌ مُؤقَّت لمشكلات غير مؤقَّتة.

أَلَمَّ ألمٌ حادٌّ بابنته الصغيرة، فنُقلت على إثره إلى المستشفى لإجراء الفحوصات الضرورية. كشف الطبيب عن مرضها، مرضٌ أصاب قفصها الصدري، وهي في ريعان طفولتها لم يرحمها المرض. المرض أكثر شيءٍ ينخرُ الأجساد، كما تنخرُ الدُّودة أوراق الأشجار الفتيَّة في صمتٍ وسكون. جلس في ركنٍ قصي يشرب في حانةٍ لا يرتادها إلَّا المشرَّدون الذين تواطؤوا على كره الحياة والهروب من مطبَّاتها. يهربون منها كل مساء

ويعـودون إليهـا كل صبـاح. عـاد، قبيـل الفجـر بقليـل، إلى منزلـه المركـون في ركـنٍ بعيـد في حـيّ مهمَّـش، يصعـبُ العيـش فيـه، يعـجُّ بالأنـذال والمعتوهـين والمجانـين الَّذيـن خـسِروا كلَّ شيء إلَّا عُقولهـم. دلـف إلى البيـت ورائحـة الخمـر تزكـم الأنـوف. هـذا الحـيُّ الَّـذي ينحـدرُ منـه هـو حـيٌّ لا يمكـن أن تـدبَّ فيـه الحيـاة يومًـا، صـوتُ السرقـة والنَّشـل والـضرب بالسـواطير يعلـو في الأفـق، حـيٌّ يعـد مـلاذًا للمروِّجـين الكبـار للزَّطلـة، وللصغـار الذيـن يأتـون مـن الأحيـاء المُجـاورة لتعاطيهـا خلسـةً.

تضـاربٌ كبـير هيمـن عـلى حياتـه. لـم يجـد حـلًّا ناجعًـا للخـروج مـن محنتـه، فلجـأ إلى الزمـن. الزمـن دائمًـا يحـلُّ الأمـور المعقَّـدة. لبـد في مكمنـه يُمزِّقـهُ القلـق والإحسـاس بالنَّكـد بعـد أن ثمـل بـدفء اللـذة، وأطبقـت عليـه التعاسـة أكـثر فأكـثر. وقلبـهُ يغـوص في أعمـاق مـن الكآبـة. السـنوات تمـرُّ كالشـهور، تقـدم بـه العمـر، ومـا زال يُعـاني. مـن المفـترض أن ينعـم بالرَّاحـة في آخـر أيـام حياتـه، لكـن الزمـن أبى ذلـك، إلى أن زفَّ لـه أحـد زملائـه في العمـل خـبرًا يفيـد بـأنَّ كل مـن قـضى مـا ينيـف عـلى ثلاثـة عقـود في مهنـة التدريـس سـينال أجـرًا كتعويـضٍ عـن سـنوات عملـه، وجهـده الجهيـد في تأديـة مهمَّتـه. فَـرِحَ فرحًـا شـديدًا، واسـتشرت سـعادة غامـرة في بدنـه النَّحيـل، وقـال في

نفسه، وهو ينظر إلى الأرض حتى كادت عيناه تحفرانها من شدَّة النَّظر: أخيرًا سأعيش حياةً كلَّها أنسٌ ومسرَّات.

سنتان وهو ينتظر، ولم تحول الأجرة الأخيرة إلى حسابه البنكي. جلَّ من رافقوه كمُدرِّسين وأطر إدارية وضعوا ورود الانتصار على رؤوسهم، ونالوا التنويه الذي تكبدوا عليه عناءً كبيرًا. ها هو الآن يدقُّ باب التقاعد، وينتظر بشغفٍ أجرتهُ الأخيرة. ما زال متمسكًا بحلمه. الحلم الذي بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا، ما زال يُخامرهُ، وأبى أن يتخلَّى عنه. يحلمُ به، لأنَّه هو خلاصه الوحيد، وبأجرته الأخيرة سيستنشقُ هواء السعادة العليل وسيرى شمس الصباح منشرحة الصدر، وسيعيش حياةً وردية كما تمنَّى.

أراهُ يجلسُ كل يومٍ في المقهى، لا يشرب شيئًا، يجلس ويختلسُ النَّظرِ، بقلبٍ منقبض، إلى وجوه الناس التي يجتاحها التيه والانكسار. يترقَّبُ صدور لائحة المتقاعدين ويتخيلُ اسمه مدرجًا فيها، هو خيالٌ قلَّما يبرحُ مخيِّلته. لا أدري متى سيفرح؟ لكن المهم أنَّه ينتظر. أن تنتظر شيئًا بعيد المنال أشبه بأن تموت ببطء. وهو مكسور الخاطر، بدت له السماء قريبة مشدودة مثل جلد بقرة، والنجوم المتلألئة تشعُّ إشعاعًا جامحًا كأنها ستنفجرُ. شعر وكأنَّ كل

شيء يضغط عليه، وتذكر في لحظة صمتٍ، يقتلُ الأحاسيس ويُعذِّب الذَّاكرة، عيون ابنته التي أصبحت كمسلات تنغرز في جسده. ظلَّ الصمت يحيطُ به مثل غمامة، ودموعٌ تترقرق في عينيه، وحلم زاهٍ يجول في رأسه أبى أن يأتي، فبقي معلَّقًا في سماءِ أفلاطون.

كلُّ هذه الصور الَّتي صوَّرتُها في هذا النَّص، تجافي الواقع، وتتنافى معه كليًّا. بيد أنَّني ذات يومٍ مررتُ بجانب مقهى يعجُّ بالذين يترقبون وصول أحصنتهم في المقدمة؛ فتدرُّ مالًا وفيرًا على جيوبهم، وقلَّما يتحقَّق حلمهم، فيعودون في المساء يجرُّون أذيال الخيبة، منتظرين اليوم الموالي على أمل أنْ تُفكَّ العُقدة. لا أؤمنُ بالرِّهانات، فهي مجرَّد كذبٍ على التاريخ. ولا يمكنني أن أراهن على حصانٍ افتراضيٍّ، وأُعلِّقُ حلمي عليه، ففي نظري، لو كنت محظوظًا فسأراهنُ مرَّة واحدة وسأفوز. رمقتهُ جالسًا، بالمواصفات نفسها التي وضعتها هنا، يرتدي ثيابًا رثَّة، ويدخن سيجارة رخيصة رائحتها نتنة، ينظرُ إلى الشارع وأرصفته بعينين جاحظتين.

صُدِمْتُ من هولِ ما رأيتهُ. ابتعدتُ عن المقهى بخطوات، ثم ركَّزتُ حواسي عليه أسترق نظراتٍ إلى وجهه. لا يلتفتُ لا يمنةً ولا يسرة. ينفثُ دخان سيجارته بوجومٍ يعتلي محيَّاه.

كيف يعقل أنَّ هذه الشَّخصية، التي افترضتها في نصِّي، دون أن أعرف أحدًا قد مرَّ بنفس المشكلات والاضطرابات، توجد في الواقع بحذافيرها. كيف خرج يا ترى من النَّص؟ عندما أودُّ كتابة نص، أجد صعوبة في بناء الشَّخصيات. لا أحبُّ أن أُدرِج شخصيةً واقعية في نُصوصي.

لم أصدق أنَّ الشخصيات تخرجُ من النُّصوص. أُصبتُ بالأرق، لم أنم تلك الليلة من شدَّة التفكير، ورأسي يطنُّ طنينًا حادًّا لكثرة الأفكار التي تتراكضُ في ذهني. نفس الملامح والهيأة التي بنيتها في ذهني. لكن هل يعيشُ المأساة نفسها؟ هل ينتظرُ أجرته الأخيرة؟ لا أعلم. المهم أنَّه خرج من نصي. لو قرأه ذات يوم، ونحن لا نعرف بعضنا لوجد نفسه فيه، رغم اختلاف التفاصيل، ولكن سماته، بحذافيرها، تلتقي مع تلك التي طرحتها فيه. فماذا سيفعل؟

في اليوم التالي وأنا في طريقي للعمل، لم أحتمل تلك الهواجس الَّتي راودتني، فعدتُ أدراجي إلى المنزل على جناح السرعة. أمسكتُ الأوراق التي كتبتُ فيها، مزَّقتها ورميتها في سلة المهملات. شغَّلتُ اللاب توب وحذفتُ النص، قبل أن أبعث به إلى ناشرٍ، سيرفضهُ في غالب الأحيان، وسيتحجج

بـأنَّ العمـل رُفِـضَ لاعتبـاراتٍ تسـويقية. تأكـدتُ جيـدًا مـن حذفـه. وسَرَتْ راحـة كبـيرة في جسـدي وتخلَّصـتُ مـن وهـمٍ سـيُفرزُ، مسـتقبلًا، هواجـسٌ لا تنتهـي.

بعـد خروجـي مـن العمـل ذهبـت مـن الطريـق نفسـها، ومـررت بمحـاذاة المقهـى. فـكان هـو مجـددًا. لكنَّـه اليـوم ليـس وحيدًا. ترافقـهُ طفلـة صغـيرة، تداعـبُ وجهـه، فيُفـرج عـن ابتسـامة حـتى تتبـدى مواضـع أسـنانه الفارغـة. اليـوم يجلـسُ وفي وجهـه فـرحٌ ضـاجٌّ. لاشـكَّ أنَّهـا ابنتـه. يـا للهـول، هـل كل مـا يحـدث لي هـو محـض مصادفـة. توجَّهـتُ مسرعًـا إلى البيـت، تحسَّسـتُ براحـة يـدي جبيـني المتفصِّـد عرقًـا، تحممـتُ بمـاء بـارد واسـتلقيتُ عـلى الأريكـة أفكِّـر في هـذه الأوهـام الـتي تلاحقـني. نمـتُ حـتى أغرقـت الشـمس الغرفـة في نـورٍ وهَّـاج، فتحـتُ عينًـا واحـدة، واكتشـفتُ أنـني كنـت غارقًـا في حلـمٍ مزعـج أخـذني إلى متاهـةٍ كـدت ألَّا أعـود منهـا كمـا كنـت. حينهـا تدفقـت أسـئلة كثـيرة عـلى رأسي، وندمـتُ ندمًـا كبـيرًا عـلى كتابـة هـذا النَّـص. شـجاعةُ الكتابـة تقتـضي البنـاء الـذَّكي للشـخصيات الـواردة في النُّصـوص، وهـذه المرحلـة تحتـاج إلى دُربـةٍ كبـيرة مـا زلـت أفتقدهـا وأتقصَّاهـا.

كنتُ عازفًا لحن العشقِ

سابحًا في عُمقِ الفرح

أنكأ جراح الرُّوح

مُلَمْلِمًا شعت الكلام

لأنسُجَ لكِ قصيدةً

اكتوى بمجازها عُمرنا القاحل.

شجرةٌ بِلا ظل

رأيـتُ إعلانًـا يعتـلي واجهـة عمـودٍ كهربـائيٍّ مائـل. التقطـتُ صـورةً لـه، ثـم قفلـتُ راجعًـا ..الى البيـت، لأعيـد تهيئـة نفـسي. ارتديـت بـزَّة لائقـة، تطـلُّ منهـا ربطـة عنـقٍ باهتـة اللـون، واعتمـرت بيريـة رماديَّـة اللَّـون لأجـذب القائمـين عـلى الكاسـتينغ. تعطَّـرت واتَّجهـت ..الى الموعـد أحـثُّ الخطـى. أحلـم أن أصـير ممثـلًا يتفـنَّن في لعـب مختلـف الأدوار، وأن أصبـح مـن الأسـماء الأولى في السَّـاحة الفنيـة لتعتـلي صـوري واجهـة الجرائـد والمجـلَّات، ويتهافـت عـليَّ كبـار المُخرجـين مـن كلِّ حـدبٍ وصـوب، يعرضـون عـليَّ سـيناريوهات وعـروض ماليَّـة مغريـة فأتمـادى في اختيـار الأنسـب، وأُعـاني مـن خنـاق المعجبـين الحالمـين بصـورةٍ أشـاركهم إطارهـا. أحـلامٌ تقفـزُ في ذهـني بسرعـة وتُحـدِثُ طنينًـا، كطنـين نحـل، نجـمَ عنـه ألـمٌ حـادٌّ.

وصلتُ إلى حيِّ المعاريف، المتميز ببنياته الشَّاهقة، وشوارعه الشاسعة، واكتظاظه الرهيب - الَّذي يفرزُ نرفزة وكلماتٍ نابية - بالسيارات بمختلف أنواعها وأشكالها. مررتُ بجانب «توين سنتر»، رفعتُ بصري أحدق إليه، مندهشًا من الكيفية التي أنشئ عليها، وكم المدَّة التي تطلَّبها بناؤهُ. تذكَّرتُ الموعد. راقبتُ ساعتي اليدوية، وزدتُ في سرعة المشي. لم أجد المكان بسهولة إلَّا بعد أن استوقفتُ أربعة أشخاصٍ في طريقي، كلُّ واحد أسألهُ وحده، لأنَّني أخاف أن يرشدني أحدهم إلى عنوان خاطئ، فأتيه في مدينة تعجُّ بالتناقضات. الثقةُ في المدن الكبرى مفقودة. إذا بحثت عنها فكأنّك تبحثُ عن إبرةٍ في كومة قش.

فرِحتُ بوصولي إلى المكان المُحدَّد في الموعد دون تأخير. سياراتٌ فخمة أمام المبنى، ودراجاتٌ نارية متهالكة، باهتة اللَّون. قدَّمتُ نفسي لحارس القاعة التي يُجرى فيها الكاستينغ، وطلب مني بطاقة هويَّتي، ناولته إيَّاها، وأشار عليَّ بالجلوس في ركنٍ قصيٍّ برفقة الآخرين حتى يُنادى عليَّ. أومأتُ برأسي متفهمًا.

لم أجد كرسيًّا أضع عليه مؤخرتي حتى ترتاح قدماي المتعبتان من شدَّة الهرولة. كان جبيني يتفصَّدُ عرقًا،

و..ابطاي أفرزا رائحةً نتنة، مقزِّزة، لأنَّني قلَّما أستحم. رأيتُ ممثِّلين مشهورين يُدخنون سجائر رفيعة. وجوههم تختلفُ عن الَّتي نراها في التليفزيون بعدما كذبوا علينا وعلى التاريخ بأقنعتهم التي تُصنعُ من مساحيق التجميل، الَّتي تخفي بُثورهم السَّوداء وتُخفي ندوبًا ما زلت مخلَّفاتها بادية عليها. أمَّا الممثلات، اللواتي يظهرن في أبهى حلَّة على التلفاز؛ يمشين بكعبٍ عالٍ، في دلال وغنج، وبمكياجٍ شديد البهيَّة فواقع حالهن يقول العكس هنا. فشعرهنَّ منكوش، يرتدين بِدلًا وأحذية رياضية بسيطة، وجوههنَّ واجمة، ويرمين زملاءهنَّ بعباراتٍ بذيئة، وهذا ما يدفعهم إلى الردِّ بعباراتٍ منتقاة من قاموس الكلام المُقذع، فينهالون عليهنَّ بوابلٍ من الكلمات السَّاقطة المرفقة بضحكٍ مجلجل. تابعت تلك المشاهد بتركيز. فقفز سؤال إلى ذهني جعلني متحرِّجًا ورأسي مدفونًا بين راحتي يديَّ، ومرفقاي مسندان إلى ركبتي: كيف يتصنَّعون على التلفاز ويُرددون عبارات تخفي وراءها تواضعًا مزيفًا ومنمَّقًا يجعل المُشاهِد يصدقهم، ويتعاطف معهم دون تفكير. إنَّ الوجوه في الغالب ليست سوى أقنعة تضمر الخفايا الكبيرة والنوايا المبيَّتة.

أخذت الشَّمس تبتعدُ عن كبد السَّماء. يلجُ الغرفة واحدٌ

تلـو الآخـر، هنـاك مـن يتأخـر وهنـاك مـن يخـرج عـلى جنـاح السُّرعـة. هنـاك مـن يخـرج وراحـةٌ تامَّـة تعتـلي وجهـه، وآخـر يخـرجُ مكفهـر الوجـه ناقمًـا عـلى الوضـع. ظـلَّ صـوت الحـارس، وهـو ينـادي المترشِّـحين، يصـدحُ في أذني. بعـض الأسـماء سـبق لي أن سـمعتها مـن قبـل، وأخـرى جديـدة عـلى أذني؛ ربَّمـا هـي لممثِّلين مغموريـن. فجـأةً. سـمِعتُ الحـارس المُنظِّـم لعمليـتي الولـوج والخـروج مـن القاعـة ينـادي عـليَّ. اقتربـتُ مـن المدخـل فرمقـني مطـوَّلًا بنظـرة اندهـاش وتعجُّـب، لـم أفهـم فحـوى نظرتـه تلـك، ولـم أُعِرهـا، في الحقيقـة، أيَّ اهتمـام. دلفـتُ القاعـة. كانـت فسـيحة عاليـة السـقف، تعتـلي جدرانهـا، الَّـتي نخرتهـا الرُّطوبـة فتقشَّـر طلاؤهـا، لوحـاتٌ فنيَّـة لأيقونـات الفـنِّ التشـكيلي: بيكاسـو ودافنتـشي، وصـور لشـخصياتٍ، غالبًـا مـا سـتكون شـخصيات تنتمـي إلى المجـال الفـنِّي، بيـد أني لـم أتعرَّفهـا. قـرب البـاب كَراسي سـوداء مـن الجلد مصطفَّـة بإتقان، يجلـس عليهـا ثلاثـة أشـخاص؛ رجـلان سـبق أن شـاهدتهما في سلسـلةٍ فكاهيَّـة في شـهر رمضـان لـم ترقـني ولـم ترتـقِ إلى مسـتوى تطلُّعـاتي، تتوسَّـطهم امـرأة مليحـةُ الوجـه، دقيقـة الملامـح مكتـنزة ذات نهديـن كبيريـن بارزيـن. ترتـدي معطفًـا أسـود اللـون، وتعتمِـرُ قبَّعـة مزركشـة، تضـع سـوارًا ذهبيًّـا زيَّـن يُسراهـا. بينمـا يجلـس الرجـلان وجبيناهمـا مقطَّبـين، كل

واحـدٍ يشـابك أصابـع يـده مـع الأخـرى في حـزمٍ وثقـةٍ كبيريـن. كلهـم يُمسـكون ملفـات موحَّـدة المقاييـس، وهـم يتطلَّعـون إلى وجهـي بترقُّـب شـديد.

ألقيـتُ التحيَّـة وجلسـت بـأدب. نزعـتُ البيريـة، ووضعـتُ يـدي اليـسرى عـلى الطَّاولـة والأخـرى بقيـت ممـدودة. رحَّبـت بي السـيدة باسـطة ثغرهـا ومظهـرةً الكثـير مـن الاحـترام. طلـب منِّي الرَّجـل الـذي يجلـس في أقـصى اليمـين بـأن أُعرِّفـه بنفـسي وأن أعطـي نبـذة عـن مسـاري في المـسرح، وأن أبيِّن لـه اهتماماتي وتطلُّعـاتي. لـم يكـن لي مسـارٌ يسـتحقُّ الـسرد سـوى أنَّـني أدَّيـتُ أدوارًا ثانويـة في مسرحيـاتٍ مغمـورة حضرهـا عـددٌ قليـل جـدًّا مـن الجمهـور، كان مخرجوهـا والمكلَّفـون بالسـينوغرافيا والتأثيـث، بـل حـتى كاتبهـا، كانـوا في بداياتهـم ولا يزالـون.

تنحنـح صـوت قـويٌّ مـن أقـصى اليسـار. اقـترح عـليَّ تمثيـلَ مشـهدٍ درامـي هـو كالتـالي: أن أحمـل حبـلًا خشـنًا، وأضعـه بعنايـة تحـت بـزَّتي، وأختـبئ وراء عمودٍ أسـمنتيٍّ في وسـط القاعة، وأنتظـر الفرصـة السَّـانحة للانقضـاض عـلى الضحيـة ولفِّـه عـلى عنقـه، لكـن الضحيـة سـيُقاوم قبـل فعـل ذلـك. تقـدم شـابٌّ في العشرينيـات، تـبرز عضلاتـه المفتولـة بشـكلٍ غـير طبيعـي، إذ إنهـا نِتـاج لمُكمِّـلات الأجسـام الـتي إمَّـا أن تخلِّـف عجـزًا جنسـيًّا

وإما فشلًا كلويًّا، وإمَّا أن تتلف الكبد. تقدَّم لمواجهتي، أنا المسكين نحيف القد، واهنُ القوى. فكيف سأجابهُ ردَّة فعله يا ترى رغم أنَّنا نؤدِّي دورًا تمثيليًّا فقط؟

أيقظ اقتراحهُ ذاك كومة من الذكريات الرَّاكدة. تفصَّد جبيني عرقًا وشعرتُ بإنهاكٍ شديد في ساقي وقفزت إلى ذهني ذكرياتُ الماضي العصيب. تسمَّرتُ في مكاني ونزل برأسي دوار شديد. قبل عقدٍ من الزمن اقترفتُ جريمةً في قريتي النَّائية بالطّريقة نفسها. هل نسيتها حقًّا؟

كنت أحبُّ حليمة التي ما زالت صورتها عالقةً في ذاكرتي، فطيفها يزورني في كل حين حتى أصبح مترسِّخًا في شعاب ذاكرتي. أحببتُها بجنون. كان شعرها مسرَّحًا بأناقة وفي عينيها التماعة تُضفي عليها مسحة إغراء. كلَّما ابتسمت كشفت عن غمَّازتيها، ووجهها الدَّافق بالحياة ينضحُ حُمرةً وتورُّدًا. إنَّ رؤيتها كافية لانشراح صدري وتراخي قدميَّ. لم تكن تقاسمني أيَّ شعور فيَّاضة، فكنت أغلي عندما أراها مع عماد الَّذي يدرسُ في فرنسا ويعود إلى مسقط رأسه صيف كلِّ سنة. لعِبتُ على حبال الكلمات برشاقة حتى أستميل قلبها، وساعدتها في نقل براميل الماء من «المطْفِيَّة» إلى منزلهم الآيل للسقوط مبيِّنًا لها قوَّتي المضمرة رغم أنَّني هزيلُ

البنيـة. كلُّ محـاولاتي بـاءت بالفشـل، ليمـزِّق الغيـض صـدري، وتتوقَّـد نـار حقـدي الدفـين الـذي أكنُّـهُ لــ عمـاد.

سـمعتُ أصواتًـا مــن الخلـف، أصواتًـا جهوريـة. كان دبيبهـا يصـل إلى أذنيَّ بصعوبـة. فقـدتُ الوعـي وأنـا مـا زلـتُ واقفًـا. كرِهـتُ التمثيـل ومـا يُفـرزه. ظننـتُ أنِّي نسـيتُ المـاضي ودروبـه، لكـن ذلـك كان مجـرَّد وهـم صدَّقتـه.

تهاويـتُ عـلى الكـرسيِّ وكانت أطـرافي مشـلولة. شـعرتُ بالضوء في الغرفـة يُصبـح ضئيـلًا. ثـم وقفـتُ أذرع الغُرفـة كطائـرٍ مذبـوح لا أعـرفُ لي وجهـة. سرت رعشـة في جسـدي بعدمـا رُشَّ وجهـي بمـاءٍ بـارد، وبخَّـت السـيدة مـن قنينـة عطرهـا بخَّتـين عـلى أنفـي، لكنَّـه كان مطيَّنًـا. استنشـقتُ الرَّائحـة استنشـاقًا قويًّـا، اسـتجمعت قـواي ووقفـتُ أخـيرًا. أيقنـت بوجـوب المـضيِّ في مواجهـة هـذا السـيل الجـارف مـن الأحـزان بـدءًا مـن الآن.

عـاد عمـاد صيـف سـنة ٢٠٠٧. كان الجوُّ حـارًّا. رأيته صحبـة حليمة مسـاء ذلـك اليـوم يجوبـان أزقَّـة القريـة ويداهمـا متشـابكتان. ظللـتُ أسـترقُ النَّظـرات إليهمـا. حاولـت السـيطرة عـلى نفـسي وحملهـا عـلى عـدم الانسـياق وراء الأهـواء الشـيطانية، بيـد أنَّـني لـم أقـدر. سرى في ظهـري دبيـب رعشـة وأغـشى رأسي

الـدوار. تبعتهمـا حـتى افترقـا قبـل غـروب الشَّـمس بعـد أن طبـع عمـاد قبلـةً عـلى جبينهـا ومـرَّر راحـة يـده عـلى وجههـا ومتلمِّسًـا شـعرها النَّاعـم. في حـين أفرجـت هـي عـن ضحكـةِ فـرحٍ ضـاجٍّ يجتاحهـا.

تصلَّبـتُ في مـكاني مقاوِمًـا أفـكاري. لـم أسـتطع مجـددًا. سِرتُ في اتجـاه البيـت، فتَّشـتُ عـن حبـلٍ قصـير عـثرت عليـه في الإسـطبل وخبَّأتـه في سروالي الـرَّث. عِمـاد معتـاد التمشِّي هنيهـة في ضاحيـة المـنزل بعـد تناولـه العشـاء مـع أسرتـه. انتظـرتُ الفرصـة لأنقـضَّ عليـه وأصـب جـام غضـبي وحقـدي عليـه. انتظـرتُ طويـلًا. دخَّـن سـيجارته بعـد أن أمسـكها ومرَّرهـا تحـت أرنبـة أنفـه وأودعهـا في فمـه في التـذاذٍ قبـل أن يُـضرم النَّـار فيها. رمـى عقـب سـيجارته وحـثَّ الخطـى عائـدًا إلى البيـت. اختبـأتُ وراء جـدارٍ طينـيٍّ نخرتـهُ الأمطـار. تربَّصـتُ بـه منتظـرًا الفرصـة السـانحة لأرتـاح مـن هـذا العـذاب. اقـترب مـن البيـت اسـتللتُ الحبـل في هـدوء ولففتـه عـلى عنقـه بقـوَّة حـتى أطلـق صوتًـا لا يـزال صـداهُ يـرنُّ في ذاكـرتي. قـاوم ببسـالة قبـل أن أوجـه إلى عقـب رأسـه ضربـةً بحجـرة صمَّـاء أسـقطته مغشـيًّا عليـه، ثـم لُـذتُ بالفـرار. لـم أتذكَّـر كيـف وصلـتُ إلى هـذه المدينـة، مدينـة الحـزانى وأصحـاب النُّفـوس المكـدودة، ولـم أعُـد أتذكـر

كيـف أنـني نسـيتُ كل شيء واختفيـتُ عـن الأنظـار. كمـا لـو أستوعب أنَّ عقـدًا مـن الزمـن انقـضى ولـم يُقبـض عـليَّ بعـد. لـم أُهاتِـف أمِّـي منـذ عـشر سـنوات، ولا أحـد يعـرفُ مصـيري، ولا أعـرف حكايـة حليمـة بعـد مـوت عمـاد وفـرار قاتلـه المتيَّـم بهـا إلى أقـصى درجـات الحـبِّ والعشـق. كلُّ هـذا لا أعرفـهُ.

نسـيتُ أمـر الكاسـتينغ واللَّجنـة السـاهرة عليـه. تناسـيتُ حلمـي بـأن أصبـح مُمثـلًا أتفـنَّن في لعـب أدوارٍ عاديـة وأخـرى مركَّبـة. عـدتُ إلى البيـت خائبًـا. أخـذتُ حمامًـا فاتـرًا لأزيـل العـرق الَّذي أفـرزه جسـدي. واسـتلقيتُ عـلى فـراشي. في الصبـاح اسـتيقظت متهـادي الخُطـى، مرهـق البـدن ويـداي ثقيلتـان.

خرجـتُ مـن غرفـتي صـوب الصالـة مصـدرًا زفـيرًا مسـموعًا. وجـدت أُمـي تضـع عـلى المائـدة خـبزًا وحليبًـا طازجًـا وجُبنًـا وزيتونًـا وبـرَّاد شـاي، يتوسَّـط المائـدة، رائحتـهُ تزكـم الأنـوف. حدجـتُ والـدي يجلـسُ في ركـن الصالـة يُتابـع أخبـار العالـم مـن كثـب، ورنـين صـوتِ أختـي، وهـي تغـنِي، يـتردَّد في أرجـاء المـنزل. فأدركـت حينهـا أنَّ حليمـة وعمـاد والكاسـتينغ وأنـا مجـرد أطيـاف عابـرة انطمـرت في تلافيـف الذَّاكـرة الملعونـة.

كل الظـروف تيـسَّرت لاقـتراف تلـك الجريمـة، كأنَّـه سـيناريو

فيلـمٍ درامـيٍّ في منتهـى الإتقـان، بحبكـة مكثَّفـة ومُحكمـة، وبشـخصياتٍ أدت أدوراهـا في مُنتهـى الإبـداع. الجريمـة وحـبٍّي لحليمـة وكُرهـي لـ عمـاد، وحلمـي بالظُّهـور عـلى شاشـات التلفـاز، هـي أوهـام وأحـلامٌ مغـدورة، تـلاشى بسـببها العشـقُ وغـاض مـاؤهُ المجنـون.

صهيلُ الذَّاكرة

بَوحُ الذَّاكرة لا يكونُ إلَّا في جوفِ اللَّيل.

توالـت السُّـنون المريـرة ومـرضُ الفِصـام ينخـرُني في صمـت. تعايشـتُ معـه مُكرهًـا لمـا يربـو عقـدًا مـن الزمـن. اعتـدت جلسـات طبيـب نفسـيٍّ؛ أبـوح لـه بالعـبء الـذي يثقـل كاهـلي، ورأسي مدفـون بـين راحـتي يـديَّ. وحـده اسـتطاع فهـم شـخصيَّتي، وشـخَّص مـرضي، وقـدَّم لي وصفـةً طبيَّـة، اعتـدت تناولهـا منـذ سـنواتٍ خلـت دون فائـدة أو تحسُّـن ملحوظـين. صبـاح يـوم الثلاثـاء مـن شـهر ينايـر / كانـون الثـاني البـارد، توجَّهـتُ، كعـادتي كل يـوم، إلى مقـرِّ الجريـدة الـتي أشـتغل فيهـا مـدة سـبع سـنواتٍ تقريبًـا. كنـت مهتمًّـا بعمـلي، أكتـب كل يـوم مقـالًا أتنـاولُ فيـه قضيـةً تشـغلُ بـال الـرَّأي العـام، أو أتطـرَّق لدراسـةٍ تاريخيـة، أو أسـلِّط الضـوء عـلى قضيَّـة أحدثـت رجَّـة في وقـتٍ مـا فطُمِسَـتْ عنـوةً، محـاولًا، بأسـلوبي البسـيط،

إعادتها إلى الواجهة. المرض تسبّب لي في عدَّة مشكلات مع رئيس التحرير، فكم من مرَّة طلب منِّي إعداد مادَّة صحفية دسمة قد تجذبُ عددًا مهمًّا من القراء، فأنسى إعدادها. وعندما يسألني عنها بحزم أصرُّ على أنني قد أرسلتها له، فيتفقَّدُ علبة رسائله دون أن يعثُر عليها. تكرَّر الأمرُ عدَّة مرات. سئم من ذلك، وتوعدني باتخاذِ إجراءٍ صارم في حقِّي.

في اليوم نفسه، تخاصمتُ مع صحفيين بعدما تناوبا على رميي بكلماتٍ مبهمة، يشككون في رجولتي عبرها، بسبب تأخُّري عن الزواج. لم أكترث للأمر في البداية، إلَّا أنَّ إصرارهما كان هو النُّقطة التي أفاضت الكأس. فَلَكَمْتُ أحدهم، ووجهت ضربةً بمرفقي لأنفه فكسرته. أصدر الآخر صوتًا حادًّا تردَّد صداهُ في كل ركنٍ من أركان مقرِّ الجريدة بعدما رأى أنف زميله يقطرُ دمًا قانيًا. طردت من عملي على إثر هذه الواقعة، فخرجتُ خائبًا أحملُ بداخلي همًّا، ثقلهُ كثقل جبل.

حتى أنسى حادثة اليوم، كما تُنسى حادثةُ سيرٍ عارضة؛ هاتفتُ نجلاء ودعوتها إلى منزلي، المتواجد في إحدى الأحياء المنزويةِ، في مدينةٍ لم تغرق في بركة الصَّمت طيلة عقودٍ طويلة. نجلاء هي ملاذي الوحيد عندما أحس بتراكم هموم الحياة. دلفتْ البيت ولثمت خدي بقبلةٍ هادئة كان لها وقع

الرنين المغناطيسي على روحي. مشت بتثاقلٍ شديد نحو غرفتي بأصابع حانية، وضعتْ قنينات النبيذ فوق الطاولة وجلستْ. خلعت ملابسها بعنايةٍ فائقة، وخلخلت شعرها المنسدلِ على كتفيها، وانسلَّت بجانبي كحيَّةٍ ملساء، لا ترتدي شيئًا، وكأنَّها وُلدتْ لأوَّل مرة.

طلبتُ منها سكب كأس من النبيذ لنشربَ قليلا•، رأيتها وهي تسكبهُ من القنينة، وكأنَّه ينسكبُ من بين شفتيها اللَّامعتين. ناولتني كأسًا فاقعة خفيفة ليست حلوة ولا مرة، ولكن كل قطرةٍ أتذوَّقها منه تسري في الجسد كله. اجتذبتني أنفاس عطرها الأخَّاذ، فكان كأنَّه الصلاة، يهمسُ لي حينًا بأن خُذها بعيدًا إلى موتك المشتهى، ولا تَعُد إلَّا وقد أوغلت روحها في روحك، وحينًا يصرخ بي امتزج وإيَّاها في محراب اللذَّة حتى تغدو النارُ ماءً.

وقفتُ هائمًا في شرفة البيت وهواء بارد يهبُّ ويخترق سترتي ليستقرَّ في أحشائي. أراقبُ المارة، على قلَّتهم، والبرد يلوي أذرعهم، وصوتُ المذياع الذي يؤنس حارس السيارات يخترقُ أذني، وحفيفُ الأشجار، وخشخشة كيسٍ في الأسفل، كلها أصواتٌ تتراقصُ في ذهني، ترقصُ دون توقف. انتبهت إلى رجل يحملق إليَّ بإمعان ولم أُعِر لنظراته الثَّاقبة اهتمامًا.

وهي تدخن سيجارة رقيقة؛ نظرت إلى تلك العينين الفاترتين والمتوهِّجتين ببريقٍ حالم، وخدَّاها الأملسان متوردان بحمرةِ خجلٍ قانية. اقتربتُ منِّي واضعةً يدها اليمنى على جبهتي، وبعطف أمومي، مسحت براحتها تعبي، فأغمضت عيني مستسلمًا لملكوتها الورديِّ.

كانت عيناها جريئتين حادَّتين سريعتين تنمَّان عن حياةٍ متقدة. قفز إلى ذهني سؤال جعلني غارقًا في نهر الحيرة: كيف كانت تستطيع الصَّمت وعيناها تفيضانِ بالكلام؟ عاشت مآسٍ متعددة، قاومت باستماتة عقابيلها، لكن الحياة لم ترأف بها. وأفرزت هذه المآسي مومسةً؛ ولجت هذا العالم، مكرهةً، هو عالمٌ كثُر فيه الذئاب الَّذين يشتهون الأجساد ويشترونها بثمنٍ زهيد مقابل متعة عابرة تنقشع في لمح البصر. نادرًا ما أضاجعها، فهي ليست كالأخريات. أقضي معها ليالٍ ماتعة، نرقص على أنغام سمفونية «بوليغو»، تتشابك يدي اليسرى بيدها، وأضعُ يدي اليُمنى على خصرها المتراص، أداعبُ نداوة شفتيها، وأنصهرُ فيها بعناقٍ أنسى به دروب الحياة.

كانت الساعة تقارب الخامسة فجرًا، خلدتْ إلى النوم وكأنَّها ملاكٌ سكنهُ شيطانٌ شرير، الحياةُ وحدها من غيرتها،

وجعلتها تشقُّ طريقًا محفوفًا بالمخاطر. في هذا الوقت بالضبط؛ السكارى يلوكون الطريق عائدين إلى أوكارهم ليقضوا ما تبقَّى من اليوم نائمين، والسيارات تعبُر بسرعة وعربات يدفعها المُنحدرون من الطبقة المغلوب على أمرها كارهين واقعهم. وعمَّال النظافة يستميتون في جمع النُّفايات المرمية على ناصية الشارع وأمام الحانات الرخيصة. ظللتُ أراقبُ وجهها الذي بدأ الزمنُ يتعبه. لم أكترث لماضيها الَّذي فُرِضَ عليها قسرًا، نحن لا نختار ماضينا، حاضرنا، مُستقبلنا، الحياةُ وحدها هي من تَملِكُ حريَّة الاختيار، عندما تختارُ الطريق نصيرُ مقيِّدين بأغلالٍ حياتيَّة مربكة، تجعلنا خائفين، تائهين، رافضين لقوانينها. لكن، مهما رفضنا الانصياع والانقياد لها، فإنَّنا سنخضعُ لها شئنا أمْ أبينا.

بدأتْ أشعة الشمس الساطعة تتسلَّلُ إلى غرفتي، وتنشرُ ريشتها الذهبية على الأرض؛ لتبعثُ في النُّفوس النَّشاط والحركة. استيقظتُ ولم أجد نسرين بجانبي، تفاجأتُ في البداية، إلى أن سمعتها وهي تردِّدُ إحدى الأغاني الإسبانية الشهيرة في المطبخ. رأسي كاد ينفجرُ من شدة الصداع. تحسَّستُ الرف الموجود بجانبي السرير لأخذ قرصٍ من الدواء الذي لا أتخلَّى عنه. وأنا أبحثُ عنه، ها هي

نسريـن تدخـلُ إلى الغرفـة، ترتـدي ثيابًـا شـفَّافة تظهـر منهـا كلُّ أعضائهـا الداخليَّـة. جـاءت نحـوي، قبَّلتـني قُبلـةً شـبقةً أطفـأت - وهيَّجـت - خليطًـا مـن الشـعور كان يمـورُ في نفـسي. هـي اسـتثناء حقيقـي، في زمـنٍ اضمحلَّـت فيـه الاسـتثناءات، لهـا قلـبُ طفلـةٍ حالمـةٍ بحيـاةٍ ورديَّـةٍ. مـرة أخـرى رنَّ جـرس المـرض الـذي لازمـني مـدة طويلـة. أعلمـه لوحـدي. لـم أسـتطع البـوح بـه في مجتمـعٍ يهمِّـش المـرضى النَّفسـيين ويرميهـم بعبـارات جارحـة. هبَّـت الأحـزان مجـددًا تقفـز إلى النَّفـس المهترئـة كمـا تقفـز الضفـادع ..الى الـبرك الآسـنة، واعتكـر المـزاج ومـلأ رأسي الـدوار.

طلبـتُ منهـا أن تغـادر شـقَّتي فـورًا. اعـترتْ مسـحة اسـتغرابٍ وجههـا، ظلـت تتفرسـني بنظـراتٍ جامـدة لا تكشـفُ عـن أيِّ شـعور. تأتـأت بصـوتٍ غـير مفهـوم:

ـ أأأأ... سأخرج؟ ماذا؟

بصقتُ على وجهها، وقلتُ بصوتٍ جهوري هزَّ كيانها:

ـ ألن تخرجي؟ انتظري هنا.

توجَّهـت عـلى جنـاح السرعـة، دون وعـيٍّ مـنِّي، إلى المطبـخ، فتَّشـتُ عـن سـكينٍ كبـير لـم أسـتعملهُ مـن قبـل. أشـهرتهُ في

وجههـا دون ضربهـا في البدايـة، ففزعـت وخرجـت مـن الغرفـة بعُجالـة، ترتـدي قميصًـا صغـيرًا وتنـورة مشـقوقة تتبـدى منهـا سـيقانها الممشـوقة. فرمتـني بكلمـاتٍ قصَمـت ظهـري، قالتهـا وهـي تحـسُّ برهبـة مرعبـة.

كلماتهـا سـعَّرت كومـةً مـن الشـعور المختبئـة بداخـلي. قبـل أن تخـرج مـن المـنزل، أمسـكتها مـن شـعرها، وطعنتهـا في أسـفل بطنهـا، وعينـاي تتقـدان بنـارٍ حارقـة. انطرحـت أرضًـا مضرجـةً بالدمـاء. رميـتُ السـكين وبقيـتُ متصلبًـا أتأمَّلهـا وأفرجـتُ عـن ابتسـامةٍ حزينـة. وكان قلـبي يقفـزُ اضطرابًـا، وعـرق راشـح في جبيـني، والأفـكار تتلاطـم في رأسي ككـرة مـضربٍ تتقاذفهـا سـواعد قويَّـة. فجـأةً همـس بداخـلي صـوت خفيـض يحثُّـني عـلى وضـع حـدٍّ لهـذه المهزلـة وإلَّا سـأدخل السـجن ولـن أبرحـه إلَّا بعـد أن أصبـح رجـلًا كهـلًا يتمـرَّغ عـلى شـفا هاويـة. رجـلٌ سـيعيشُ مـا تبقـى مـن حياتـه ينشـدُ الصدقـات، يفـترشُ الأرض في كلِّ الفصـول. اصطكَّـت أسـناني واسـتشرى رعـبٌ في بـدني وأنـا أقـول مـع نفـسي: ينتظـرني سـجن بـارد يعـجُّ بالقتلـة والمجرمـين والمغتصبـين، سـجنٌ ينفـي الحريَّـة والحيـاة الورديَّـة الـتي لطالمـا حَلُمـتُ بهـا. سـيُحكم عـليَّ بعقديـن مـن الزمـن عـلى الأقـل؛ هـذا إنْ راعـى القـاضي ظـروفي وتفهَّـم نفسـيتي المهزوزة

ومـرضي اللعـين. الأمـر برمَّتِـهِ الآن لا يحتـاجُ سـوى إلى حبـل المـتر والنصـف، ألفُّـه عـلى عنقـي بعـد ربطـه بسـقف المطبـخ، وشُربِ جرعـات زائـدة مـن دوائي، أتبِعهـا كأسًـا مـن المـاء الـدافئ تنسـيني بـرودة جسـمي بعـد سـقوطه وتهـوِّن مـوتي. المـوت هـو المُنتـصرُ علينـا جميعًـا. ثبـتُّ الحبـل جيـدًا وربطـت بـه عنقـي، ودفعـت بقدمـي اليمـنى الكـرسيَّ الـذي أقـف عليـه، فخـرج رذاذٌ بـارد مـن جنبـات فمـي، وحشرجـة اختـرقـت حلقـي. وانتهـت مأسـاة روحٍ هائمـة في الضيـاع.

‹‹الشُّـعوب العربيـة لـم تسـتطع التكيُّف مـع المرضى النَّفسـيين، همَّشـتهم قصـدًا، دون أن تعـرف بـأنَّ المجانين خـسِروا كلَّ شيءٍ إلَّا عقولهـم؛ ولـم تـدرِ بـأنَّ كل إنسـانٍ يحمـلُ بداخلـه كومـةً مـن الأمـراض النفسـية الَّـتي تتفـاوتُ خطورتهـا فتظـلُّ هادئـة إلى أن تنفجـر فتُفـرز شـخصًا مختلفًـا عـن السـابق، وجعلتهـم يعيشـون حكايـةً تدمـي القلـب في بيئـةٍ لا تعـرف شـيئًا عـن المـرضى النَّفسـيين أو المختلـين عقليًّـا. العـرب، بطبيعتهـم، يتعاطفـون مـع الأمـراض العُضويـة ويعتنـون بالذيـن يقارعونها، في حـين أن الأمـراض الـتي لا تتبـدى لهـم لا يعترفـون بهـا بتاتًـا، أو أنَّهـم يُعطونهـا تأويـلًا لاهوتيًّـا››.

سيِّدةُ القِطط

استيقظتُ مذعورًا، متعرِّق الجسد، أعقدُ حاجبيَّ كارهًا ذلك الحلم المفزع. حلُمتُ وكأنِّي أسقطُ من ارتفاعٍ شاهق، وارتطم رأسي بصخرة فانفجر دمًا. رغم بنيتي الجسديَّة الضخمة والمُترهلة فإنِّي أخافُ من الأحلام. أقسى ما قد يعيشهُ الإنسان هو ملاحقة حلمٍ، سيدركُ بعد فوات الأوان، أنَّه خيط دخان. أحلم ولا أحلم، أطوف بقلعة الحلم يائسًا أرفض الهداية وأرفضُ الاستسلام. أعرفُ أنَّ أحلامي تلوِّح لي من بعيد، والوصول إليها يتطلَّب رباطة جأش وساعدين قويَّين واتزانًا في التفكير. هكذا فقط يُمكنني الوصول إليها. أحلم بشقَّة فاخرة، وبسيارةٍ فارهة، وأن أتزوَّج بالتي وعدتني بحبٍّ أبديٍّ فخانت العهد. أحلمُ بأمِّي وهي تطوفُ بالكعبة المكرَّمة التي لطالما تمنَّت زيارتها، وأن

تعيش تلك الأجواء الرَّوحانية بذلك المقام المقدَّس التي لا يقايضُ الوجود به بكنوز الدنيا. حلمها يتوقَّفُ عليَّ. إنني مطالب بمسابقة الزمن، بالكفاح وبذل جهد جادٍّ ومضنٍ لتحقيقه.

فتحت النَّافذة لأزيل العرق وأستنشق هواء نقيًّا يزيح عني مُخلفات ذلك الحلم، وبحثتُ عن منفذٍ يُخلصني من أحلامي الضائعة، التائهة. هبَّ عليَّ نسيم الصباح البارِد وسرى انتعاشٌ كبير بداخلي. وقع نظري على امرأةً تجاوزت الخمسين في الغالب، وما ينمُّ عن ذلك هو التجاعيد التي نالت من وجهها السمح. تضع سوارًا فضيًّا في معصمها، وترتدي تنورةً سوداء اللَّون، رمقتُ بشغفٍ عينيها الساهرتين، وشعرها الفاحم، ولونها القمحي، ورِقَّتها الطافحة. لم تكن بعيدة عنِّي، كانت في الأسفل مباشرة. تمعَّنتُ قسمات وجهها بعناية وتأنٍّ شديدين.

تقفُ المرأة وقفةً رُجولية، وحولها عشرات القطط الظريفة. قططُ المدينة كلها قطط ظريفة لا تؤذِي أحدًا، على خلاف قطط البادية؛ التي تنتظرُ الهفوات لكي تنقضَّ على أيِّ شيء قابلٍ للأكل تركتهُ دون مراقبة. العشرات منها تتدافع، وتحومُ حولها، طامعةً في تناول فتات الخبز «الكَارْمْ» . تعتنِي بها،

تقـدم لهـا الطعـام كل يـوم قبـل أن تقـوم الشَّـمس مـن مهدهـا وتـضيء الأرض بأشِّـعتها الدافئـة.

تـأكل القطـط بسرعـة، وتـشربُ الحليـب في تدافـع. أمَّـا هـي فتراقبهـا بعيـونٍ تضجَّـان بالعطـف والحـب، تراقبهـا ومسـحة فـرحٍ تُرسـمُ عـلى محيَّاهـا، وفي أحايـين أخـرى تضحـكُ مـلء شـدقيها حـتى تظهـر نواجذهـا. لا أعـرفُ الخلفيـات الـتي جعلتها تتعامـلُ مـع قطـطٍ مُـشرَّدة، بعطـفٍ وحنـانٍ عجيبـين. ظللـتُ أراقبهـا خلسـةً، حـتى انتهـت مـن تقديـم كلِّ مـا لديهـا، ركِبـت سـيارتها الفارهـة، وذهبـت إلى حيـث تـودُّ الذهـاب.

لقـد حـرَّك هـذا المشـهد شـعورًا راكـدًا بداخـلي، وهـذا مـا دفعـني إلى البحـث والتقـصي عـن هُويَّـة تلـك السيِّدة الـتي لـم أرهـا مـن قبـل، رغـم أنَّـني أسـتقرُّ بالحـيِّ نفسـه لمـا يقـارب ثـلاث سـنوات. في المسـاء، وأنـا عائـد إلى البيـت منهـكًا بعدمـا اُستُنزِفت طاقـتي في عملٍ لـم أحبـه ولـم أُحِـب مـن يقاسـمونني إيـاه؛ إذْ يُجيـدون الهمـز واللَّمـز والنَّميمـة والسـخرية مـن الآخريـن بمُنتهـى الإبـداع، ويتقاعسـون في واجباتهـم المنوطـة لهـم. علمًـا أنَّهـم مثقَّفـون؛ أو عـلى الأقـل يدَّعـون ذلـك. التقيـتُ حـارس السـيارات في الحـيِّ مصادفـة، يرتـدي صدريَّـة صفـراء فاقـعٌ لونهـا، ويحمـل في يـده اليمـنى قنينـة ويسـكي،

يـشربُ مـاء الحيـاة الرَّخيـص باسـتمرار، لكـن هـذا لا يمنعـهُ مـن التحـلِّي بالقيـم النبيلـة والأخـلاق العاليـة. اسـتفسرت منـهُ عـن السـيدة، وصفتهـا لـه بدقَّـة عاليـة، فعرِفهـا.

أخـبرني أنَّهـا كانـت تشـتغلُ صحفيَّـة في إحـدى الجرائـد الـتي تحتـلُّ مكانـة مرموقـة في السـاحة الثَّقافيـة، تكتـبُ في الشِّـق السـياسي، وتواكـب آخـر مسـتجداته. وربَّمـا الآن تشـتغل مـع مؤسسـةٍ إعلاميـة في الخـارج لأنَّهـا تُسـافر في كلِّ شـهر تقريبًـا.

وأردف قائلًا:

ـ هـي امـرأة غـير متزوجـة، تكـترِي شَـقَّةً في الطَّابـق الثَّـاني مـن العمـارة منـذ مـا يربـو عـلى عـشر سـنوات. لا يدخـلُ شـقتها أحـد غيرهـا. ولا يزورهـا أحـد. كلَّمـا اتصلـت بي، تُطلـبُ مـني أن أحـضر لهـا علبـة سـجائر رفيعـة، وقنينـة مـشروبٍ غـازي، وبعـض المكسرات. كلَّما وقفتُ بجانـب بـاب شـقَّتها أرمـقُ كتبًا ومجـلات وجرائـد مرميـة عـلى الأرض، ومنفضـة امتـلأت عـن آخرهـا بأعقـاب السـجائر، وبجانبهـا قنينـة مـاءٍ معـدني.

شـكرتهُ عـلى إفادتـه تلـك. وسِرتُ في اتجـاه المـنزل ولـم أهضـم مـا قالـه. زعزعـتُ شـكِّي، وتيقَّنـتُ أنَّهـا امـرأة مُثقَّفـة. ربَّمـا تفتقـدُ علاقـة عاطفيـة أو أنَّهـا مـرَّت مـن تجربـةٍ سـيئة، أو فقـدت

عزيـزًا، فاختلـط الشـعور وخلَّـف بداخلهـا جرحًـا أبى أنْ يندمِـل. مُخلَّفـات الحـروب الأهليـة قـد يدوِّنهـا التاريـخ وتُنـسى، لكـن المعـارك العاطفيـة لا تُنـسى ومـن الصعـب نسـيانها لأنَّهـا تظـلُّ موشــومة بداخــل الإنســان إلى الأبــد. تعطــفُ عــلى القطــط وتمنحُهـا الـدفء الـذي تفتقـده. فاقـد الـشَّيء لا يتحـدثُ عنـه كمـا يَـروج، بـل، ببسـاطة، يُعطيـه في صمـت.

دودةُ الورق

في ركـنٍ قـصيٍّ مـن أركانِ المقهـى كانـت تجلـسُ امـرأة جميلـة تقـدَّم بهـا العمـر وشـارفت عـلى السـتِّين. رأيتهـا أوَّل مـرَّة تحمـلُ بـين يديهـا المُتجعِّدتـين روايـةً باللُّغـة الفرنسـية سـبق وأنْ قرأتهـا منـذ سـنتين، هـي روايـة لأيقونـة الأدب الفرنـسي «أندريـه مالـرو»، أندريـه هـذا كان يُرافـق الرَّئيـس الفرنـسي الأسـبق «دوغـول» أينمـا حـلَّ وارتحـل، أشـبهُ بظلِّـه. ذات مـرَّةٍ سُـئل دوغـول عـن سـبب اهتمامـه بمالـرو ومُرافقتـه لـه أكـثر مـن الـوزراء والسياسـيين الكبـار، فأجـاب باقتضـاب: يُرافقـني حـتى لا أنـسى إنسـانيَّتي.

الأدبُ هـو شيءٌ نبيـل وسـيظلُّ نبيـلًا إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليهـا، الأدبُ منـذ بداياتـه يُدافـع عـن الإنسـانية ويحمـلُ عـلى عاتقـه قضاياهـا. في هـذه الحقبـة بالـذَّات، كان أندريـه مالـرو

وزيـرًا للثقافـة ومُلِمًّـا بدهاليزهـا. وتلـك الروايـة الـتي تلتهـمُ صفحاتهـا موسـومة بعنـوان «LA CONDITION HUMAIN»، يتحـدث فيهـا الكاتـب عـن حـربٍ داميـة عرفتهـا الصـين الشَّـعبية خـلال الثلاثينيـات مـن القـرن المـاضي، حـربٌ أهليَّـة دمَّـرت جـلَّ أرجـاء الصـين، فصـارت النِّيران تلتهـم الأكـواخ والمنـازل، كمـا تلتهـم النَّـار كومـة القـش. خلَّفـت الحـرب بنايـات آيلـة للسـقوط، ومئـات القتـلى والجرحـى. هنـا تتجسَّـد المعانـاة، عـانى الصينيـون في صمـت، وبقلـوبٍ مكلومـة.

تقـرأُ المـرأة بـشرهٍ كبـير، تدخـن سـجائر رفيعـة ورقيقـة بلهفـة شـديدة، تضـعُ مكياجًـا يشـدُّ النَّاظـر إليـه. لهـا عنـقٌ عاجـيٌّ تحيـطُ بـه سلسـلةٌ فضيـة كما يُحيـطُ السـوار بالمِعصـم. تلبـسُ الكعـب العـالي وترتـدي تنـورةً قصـيرة سـوداء اللَّـون وسـاعة يدويـة ناصعـة البيـاض. شـعرها بـدأ الشَّـيبُ يُداعبـهُ ويتربَّـصُ بـه. كانـت جميلـة لدرجـةٍ مُذهلـة، أرمقُهـا بنظـراتٍ حـادَّة، مُحـاوِلًا فهـم تحرُّكاتهـا. تجلـسُ بـأدبٍ وإحـكام، تضـعُ سـاقًا فـوق أخـرى، وترتـدي نظارتـين عريضتـين كتلـك النَّظارتـين اللَّتين ارتداهما البروفيسـور في المسلسـل الإسـباني الشَّـهير «LA CASA DE PAPEL». تعتـني جيِّـدًا بهندامهـا وجمالهـا، انبهـرت بهـا لدرجـة الجنـون، لـم أُزح عينـيَّ الجاحظتـين عنهـا. لا تلتفـتُ

لا يمنـة ولا يُـسرةً، لا تتحـدَّثُ مـع النَّـادل الـذي يغتـابُ روَّاد المقهـى بانتشـاءٍ كبـير، ولا تُكلِّـم مـن يطلـبُ منهـا القدَّاحـة، تسـلِّمها لـه في رمشـة عـين ثـم تنكـبُّ عـلى القـراءة مـرَّة أخـرى.

تقـرأ بوتـيرةٍ سريعـة، مـا ينـمُّ عـلى ذلـك، هـو أنَّهـا قـد تـأتي اليـوم بكتـابٍ فكـريٍّ، وغـدًا أراهـا تقـرأ روايـة، أي إنَّهـا لا تنـامُ إلَّا بعـد الانتهـاء منـه. تقـرأ باللغـة الفرنسـية كثـيرًا، قلَّمـا رأيتهـا تقـرأ باللغـة العربيـة. هـي آكلـةٌ للكتـب كـدودةِ الـورق، تقـرأ بنهـم شـديد. أراهـا في بعـض الأحيـان تبـكي وتتكلَّـسُ الدّمـوع في عينيهـا، تبـكي بتأثـرٍ بالـغ، تبـكي حزنًـا وتضامنًـا مـع مُعانـاة شـخوص الرِّوايـة، وأحيانـا تُرسـمُ عـلى وجههـا ابتسـامةٌ مرحـة، تبتسـم حـتى يُغيظـني بيـاضُ أسـنانها المُتراصـة، وتظهـر ثقـوبُ الزيـن عـلى وجههـا.

أرتـادُ المقهـى لأراهـا، أُراقبهـا، وأحـدق إليهـا بنظـراتٍ ثاقبـة. كانـت تُشـبه دودة الـورق، تقضـمُ أوراق الروايـات، وتلتهمُهـا. هـي لا تهتـمُّ بمـا يجـري حولهـا مـن مشـكلات وأحـداث، لا تكـترثُ لذلـك، تهتـمُّ بنفسـها وتقـرأ، لا شيء غـير ذلـك. فلينقلـب العالـم رأسًـا عـلى عقـب، فهـي بعيـدةٌ كلَّ البُعـد عـن هـذا الواقـع البائـس. لا تجـدُ الوقـت الـكافي للحديـث، ولا تهتـمُّ بشـؤون الموضـة وآخـر صيحاتهـا. ليـس لهـا أيُّ صديـق

أو صديقـة، هاتفهـا لا يـرن ولا تتصفحـهُ بتاتًـا، هـي منعزلـة عـن الواقـع وعـن الافـتراضي. تعيـشُ في عالـم الأدب والفكـر وتسـبحُ في عالــم الشــخصيات الــتي تتصــارعُ في صفحــات الروايــة. وحدهـا القـراءة تُحرِّرنـا مـن الكآبـة.

ذات يـوم ارتـدتُ المقهـى كعـادتي، رأيـتُ النَّـادل يرتـدي بدلتـهُ الأنيقـة الممزوجـة بالأبيـض والأسـود، وربطـة عُنـقٍ قصـيرة. كان وجهـهُ مكفهـرًّا، يعقـدُ حاجبيـه، لا يبتسـم. يقـفُ قـرب الكُونطـوار مُنتصبًـا. طلبـتُ قهـوتي السّـمراء الـتي توطَّـدت العلاقـة بيـني وبينهـا منـذ مـدَّةٍ طويلـة، أبـدأُ بهـا صباحـي دائمًـا. مـن لا يـشربُ القهـوة في كلِّ صبـاحٍ لا يُعـوَّلُ عليـه.

أحتـسي قهـوتي، وأتصفَّـحُ حائطـي الفيسـبوكي، وأرى جديـد الأخبـار ومـا يقـعُ في هـذا العالـم الـذي أتكبَّـد عنـاء وجـودي فيـه. أزيَـدُ مـن سـاعةٍ وأنـا جالـسٌ في المقهـى، ودودةُ الـورق لـم تـأتِ بعـد. تملَّكـني حـزنٌ شـديد، لا عمـل ولا شُـغل لي، سـوى مُراقبتهـا. بـدأ الـرُّوادُ يسـتفسرون عـن سـبب غيابهـا، تعـودوا رؤيتهـا في ركـن المقهـى جالسـة تقـرأ وتُدخـن. بـدأ النَّـادل يتحـدثُ باسـتعلاء، وقـال:

ـ لقـد تركـت البارحـة ورقـة صغـيرة كتبـت فيهـا بخـطٍّ عريـض

أنَّهـا سـتغيبُ عـن المقهـى مـدَّة معينـة، لـم تحـدد المـدَّة. سـببُ غيابهـا أنَّهـا سـتنكبُّ عـلى كتابـة عمـلٍ أدبي، ربَّمـا روايـة. هـي لا تعـرفُ شـيئًا، مـن يقـرأ ومـن يهتـمُّ بالثقافـة في الوقـت الرَّاهـن، نحـن نتصـارعُ مـع لقمـة العيـش فقـط. الكتابـة هـي شـغلٌ لمـن لا شُـغلَ لـه. ربَّمـا سـتكتبُها باللُّغـة الفرنسـية، كمـا قالـت، ولكـن مـن يقـرأ اللغـات الأجنبيـة؟ إنَّـني أشـفقُ عليهـا.

تطـاول هـذا المعتـوه عـلى تلـك المـرأة المُثقَّفـة، الـتي قـرأت في سـنة واحـدة مـا يقـرأهُ جـلُّ الطلبـة الجامعيـين في ثلاثِ سـنوات. ذبَحتـني كلماتـه ونعوتـه المُجحفـة. لهـذا لا أحـبُّ النُّـدل، ولا أجعلهـم يدخلـون معـي في حديـثٍ طويـل الأمـد. هـو لا يُحـب روَّاد المقهـى، بـل يعشـقُ البقشـيش عشـقًا لا ينتهـي. اهتـم بالبقشـيش أيُّهـا النَّمـام فمـا بينـك وبـين الثقافـة إلَّا الخـير والإحسـان.

هكـذا مـرَّت تلـك الأيـام وأنـا أراقـب دودة الـورق دون ملـل، أراقبهـا ودهشـةٌ كبـيرة تتملَّكـني. لهـذا أقـولُ دون مواربة، سـحقًا لـكلِّ امـرأة تُجيـدُ الطبـخ ولا تقـرأ، سُـحقًا لامـرأة تهتـمُّ بالموضـة ولا تقـرأ، سـحقًا لامـرأةٍ تجيـدُ طقـوس الحـبِّ ولا تقـرأ. كلُّ فتـاةٍ لا تقـرأ، لا يُعـوَّلُ عليهـا. دودة الـورق بالقـراءة تتقـوَّى والبـاقي تفاصيـل. ليـس المهـم أن يُصبـح الجسـدُ مُتجعِّـدًا أو مُترهـلًا،

لكـن الأسـوأ هـو أنْ يصـير العقـل مُترهـلًا والتفكـير فضفاضًـا. سـتظلُّ دودةُ الـورق صغـيرةً في السـن، وزادُهـا المعـرفي يـزدادُ بشـكلٍ سريـع، وتجاعيدهـا تتقلَّـص. الانغمـاسُ في القـراءة هـو الـدواء الوحيـد والأوحـد للعقـل.

أكادير، ٢٠١٧/٠١/٢٥.

خيبات الكِتابة

١

في معـرض الكتـاب كنـتُ أبحـثُ عـن كتـابٍ لأسـتاذٍ جليـل، درسـني منـذ سـنوات، وكنـت أرغـب في حضـور حفـل توقيـع كتابـه الجديـد، فلـم أوفَّـق، نظـرًا إلى ظـروف العمـل، إذ كانـت المناوبـة قـد وصلتـني. بعـد مـرور يومـين تقريبًـا، ذهبـتُ إلى معـرض الكِتـاب، اقتنيـت الكتـاب وروايـات لأسـماء شـابة نالـت جوائـز تسـعد بمكانـةٍ مرموقـة في الأقطـار العربيـة؛ صرت أقتـني الأعمـال الـتي تنـال الجوائـز لأطـوِّر أسـلوب كتابـتي وأتعـرَّف تقنيـات جديـدة في كتابـة الرِّوايـة، وأتمكَّـن مـن امتـلاك مقاليـد اللغـة. بينمـا أجـوب المعـرض بممرَّاتـه الضيقـة، عاينـت تلـك الفظاعـة، والازدحـام الرَّهيـب الـذي يعـمُّ أرجـاء المعـرض، فتبـادر إلى خلـدي سـؤال قـد يبـدو تافهًـا: هـل كل هـؤلاء الـزوار، والذيـن يفـوق عددهـم عـشرة آلاف زائـر، قـرَّاء؟ وهـل

مـا زال الكتـاب الـورقيُّ يحظـى بالاهتمـام نفسـه رغـم أنَّنـا في عـصر الرَّقمنـة والشَّـبكة العنكبيَّـة؟

حدجـت عينـاي شـابًّا في عقـده الثالـث يجلـس عـلى كـرسي بلاسـتيكي وأمامـه عـشرات النُّسـخ مـن الكتـب، ربمـا لعمـلٍ أنتجـه ونظَّـم النَّـاشر حفـل توقيـع احتفـاءً بالكاتـب وعملـه. ذهبـتُ زهـاء سـاعةٍ تقريبًـا وعـدت إلى المـكان نفسـه، ووجـدت الشـاب يجلـس وعـدد النُّسـخ لـم يتقلَّـص. رأيتـه يتصفـح هاتفه ومعالـم الحـسرة والأسى باديـة عليـه. الشُّـعور نفـس تقريبًـا اجتاحـني قبـل عقـدٍ مـن الزمـن: كتبـتُ منشـورًا في صفحـتي عـلى الفيسـبوك أخـبر فيـه الأصدقـاء بـأنَّ حفـل توقيـع روايـتي «جحـا بغـداد لـن يعـود» سـيكون بعـد يومـين. رحَّـب جلهـم بالفكـرة، وقطـع أغلبهـم وعـدًا بالحضـور في الوقـت المحـدَّد، وأعـرب جلهـم عـن شـوقهم إلى مطالعـة الروايـة، لا سـيَّما بعـد الأصـداء الطيِّبـة والمراجعـات النقديـة الـتي اعتنـت بهـا. فرحـتُ كثـيرًا، وشـعرتُ بالفخـر. عـدد الذيـن أكـدوا الحضـور يتجـاوز المائـة، وخـلال حفـل التوقيـع، بـاع النَّـاشر ٢٥ نسـخة فقـط. شـعرت بالخيبـة، ومنـذ ذلـك الحـين قطعـتُ وعـدًا عـلى نفـسي بـألَّا أحـضر أي حفـل توقيـع لأيِّ شـخص كان، وأرفـض طلـب النـاشر بتنظيمـه وإعـداده حفـل توقيـع، لأنَّ بيـع الأعمـال

الأدبيـة في المغـرب يكـون: إمَّـا بالإهـداء وإمـا بالإحـراج.

بـدت لي ملامـح الشَّـاب منهزمـة، وسـيعود إلى منزلـه يجـرُّ أذيـال الخيبـةِ، وسـيقطع هـو الآخـر وعـدًا عـلى نفسـه بـألَّا يحـضر مـرةً أخـرى لأي حفـل توقيـع، لأنَّ المـرارة الـتي تجرعهـا ذلـك اليـوم سـتبقى موشـومة في الذاكـرة. ذاكرتنـا نحـن المغاربـة، يا للأسـف، تنـسى الأفـراح والنَّجاحـات، وتتذكـر جيـدًا الأتـراح والخيبـات.

٢

في ليلـةٍ ماطـرة جـاءت سـيارة الإسـعاف تولـول حاملـةً يـدًا شـبه مبتـورة. تلقـى فريـد ضربـةً بسـيف حـاد كادت تبـتر يـده مبـاشرة. حاولنـا القيـام بمـا يتطلـب الأمـر، تدخـل أطبـاء المصحَّـة لإنقـاذ فريـد مـن عاهـةٍ مسـتديمة سـتخلف بداخلـه جرحًـا لـن يلتئـم. بـاءت محاولتنـا بالفشـل. بُـتِرَتْ اليـد، واسـتيقظ فريـد عـلى واقـع لـن يرحمـه بعاهـةٍ تسـبَّبت فيهـا مبـاراة كـرة القـدم بـين قطـبي الكـرة الوطنيـة. انهـزم أحدهمـا فتواجه المشـجعون بتراشـق بالحجـارة، وتبـادل العنـف بأسـلحة بيضـاء وحـادَّة. تسـعون دقيقـة قـد تزهـق أرواحًـا أو تخلـف عاهـات يمقتهـا حاملوهـا. كيـف تحـوَّل شـغف الملاعـب إلى مأسـاة؟ بعـد نهايـة المبـاراة يتصافـح اللاعبـون كإخـوة في نفـق الملعـب، بينمـا

المشجعون، الذي يهتفون بشعار ناديهم ويتباهون بترسانة فريقهم، يقومون بأفعال حوَّلت مدرجات الملاعب وجنباته إلى جحيمٍ حقيقي.

ظلَّ فريد أيامًا تحت العناية المركَّزة. أجهشت أمه في البكاء بعدما رأت ذلك المشهد الفظيع. حضر أصدقاؤه وذووه يتعاطفون معه فبدا فريد قويًّا، معتادًا مجابهة الصعاب. توالت الأيام وفريد قلَّما يبرح سريره. تجاذبنا أطراف الحديث، فأخبرني أنه مقبل على السنة الأخيرة في الجامعة، درس القانون وألمَّ به، يتكلَّم بلغة عامية راقية، وكأنَّه تعوَّد الحديث بالعربية الفصحى. حكى لي كيف اختلط الحابل بالنَّابل خارج الملعب في تلك الليلة. علمت حينها أنَّ صفحات الفيسبوك تؤجج الصراع وتضع يدها على النعرات لتشتعل الحرب بين المشجعين. هي صفحات لشباب يتوارون عن الأنظار هدفهم هو إشعال فتيل الصراع وتقوية الضغائن بين جهور القطبين الذين يحتلَّان مكانة بارزة في الكرة الإفريقية والعالمية.

تفاجأتُ عندما أخبرني فريد أنَّه يكتب رواية يتناولُ فيها قصَّة فتاةٍ مغربية تعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، كتبت رواية تروي فيها قصَّة والدها الجندي الذي عاصر

أطـوار الحـرب العالميـة الأولى، عندمـا أجـبر الجنـود المغاربـة عـلى الذهـاب إلى فرنسـا لمسـاعدة جيشـها والذود عنها باسـتماتة إلى آخـر رمـق. وفصَّـل في معـرض حديثـه في تفاصيـل الرِّوايـة قائـلًا بانتشـاء:

- تـرك والدهـا رزمـة مـن الأوراق هـي مذكـرات كتبهـا خـلال الحـرب باللغـة الفرنسـية، يصـف فيـه الدمـار والمأسـاة الـتي عاشـها هنـاك وهـو بعيـد عـن أهلـه وذويه. عـثرت نجـلاء، ابنته، عـلى تلـك الأوراق وأخذتهـا معهـا إلى أمريـكا، حيـث سـتتابع دراسـتها في جامعـة بوسـطن، تخصـص هندسـة المعلوميـات. عندمـا حظيـت بوظيفـة لائقـة انكبـت عـلى ترجمتهـا ترجمـةً لائقـة، لتبـدأ مغامـرة كتابـة روايتهـا بأسـلوب شـائق بعدمـا اختمـرت التجـارب في ذهنهـا، وقـد نالـت هـذه الروايـة جائـزةً تحتـلُّ مكانـة بـارزة في أمريـكا، ولقيـت شـهرةً واسـعة في صفـوف الكتَّـاب والمثقفـين.

اسـتهواني موضـوع الروايـة المركَّـب. روايـة جديـرة بالعنايـة والاهتمـام. طلبـتُ منـه أن يخـبر والدتـه، عندمـا تـودُّ زيارتـه، أن تحضرهـا لـه حـتى أتمكَّـن مـن قراءتهـا. أومـأ برأسـه موافقًـا.

أحضرتهـا أمـه بعـد يومـين، قدَّمهـا لي وطلـب مـني أن أطالعهـا

وأبـدي رأيي فيهـا دون مواربـة. قرأتهـا وانبهـرت بأسـلوبه وطريقـة سرده، وأدركـتُ حينهـا أنَّ فريـد يتمتـع بخيـال واسـع، هـي أحـداث يمكـن أن تحـدث لكـن ليـس بتلـك الطريقـة السرياليـة. قرأتهـا عـلى مـدار ثـلاث ليـالٍ متتاليـة دون أن أفاتحـه فيهـا. عـدت للعمـل في اليـوم المـوالي وتفاجـأت بخروجـه مـن المستشـفى. احتفظـتُ بالمسـودَّة وبحثـت في سـجل المـرضى عـن رقـم هاتفـه أو رقـم أحـد أقاربـه. اتصلـت بالرقـم الـوارد في الوثائـق الخاصَّـة بفريـد، أجابـني والـده، شـكرني عـلى جميـل عنايـتي بفريـد، وطلبـتُ بـأن يخـبر فريـد ببراعتـه الأدبيـة، وأنَّ الروايـة قـد لاقـت استحسـاني، وأن يسـير عـلى الـدرب نفسـه.

لم أرَ منذ ذلك اليوم فريد وروايته الفريدة.

راوية شفاهي

عرفـتُ رجـلًا عليـلًا يتكلَّـم بفظاظـة، يتقاسـم معـي مقعـد سيارة الأجـرة. يثرثـر في مواضيـع مختلفـة، إذ يتنقَّـل برشـاقة بـين السياسـة وقضاياهـا، ويحلـل المنحـى الاقتصـادي والأزمـة الـتي تنخـر بلادنـا، ويبـدي وجهـة نظـره في حـال الثقافـة ومـا تتخبَّـط فيـه مـن مشـكلات. وفي أثنـاء حديثـه يمـرر لنـا وقائـع وأحـداث عاشـها خـلال حياتـه، واكتشـفت فيمـا بعـد أنـه يشـتغل في البحريـة الملكيـة. كانـت أسـنانه مهشَّـمة، ويرتـدي بنطلونًـا أسـود اللـون، وجاكيـت يحمـل لـون بذلـة القـوَّات المسـلَّحة الملكيـة الذيـن يجعلوننـا ننعـم بطمأنينـة وهنـاء، ويكابـدون قسـاوة الطقـس في صحـراءٍ قاحلـة للـذَّود عـن رقعـة الوطـن.

قـضَّ حديثـه مضجـع الـرُّكَّاب، وأدركـت أنهم سـئموا مـن كلامه، وتمنـوا أن يصمـت وترتـاح آذانهـم مـن صوتـه الخشـن. أمَّـا أنـا

فاستمتعت بسرده، وتمتعه بفنِّ الحكي؛ الفن الذي يكون هبة ربَّانية غير متاحة للجميع. رأيت في حكاياته سرديَّات تحتاج إلى الاختمار وكتابتها في نصٍّ أدبيٍّ بديع. الذين يكثرون من الكلام يمتلكون قلوب مكتظَّة بالخيبات والهزائم والانكسارات التي يداوونها بكلامهم الكثير، الذي يرى فيه البعض إزعاجًا.

بدا لي في منتصف الأربعينيات، له ثقافة قادرة على استهواء الغريب الذي له القدرة على الإنصات والتركيز فقط، لأنَّه لا يترك لك مجالًا للردِّ، وهذا ما يدلُّ على ترسانة سرديَّة وحيويَّة يزخرُ بها. يتكلَّم في بعض الأحيان بلغة إسبانية صميمة، ويرتدي لباسًا أنيقًا من ماركات أجنبية مرموقة. كلامه وسرده كان جذَّابًا، جعلني أتأمَّل أناقة الزيِّ والحكي. طالت الرحلة إلى ثلاث ساعات استمتعت فيها بثقافة رجل يعرفُ العالم من خليج المكسيك إلى المحيط الأطلنطي، يعرف التكتلات الإثنية والسياسية في كل دولة، يعرف الأنظمة المستبدة والديمقراطية، يستحضرُ في مضمار حديثه أشهر الانتخابات المزيَّفة التي زوَّرت مقوِّمات الديمقراطية، له دراية عميقة بأزمات الدُّول العربية وما استخلصوه من ثوراتهم، ويتميَّز برؤية متبصرة مكَّنته من التنبؤ بمآلات دولنا العربية، وأعرب عن قلقه من مصيرها المحتوم

قائـلًا بابتسـامة ظريفـة رأيـتُ وميضهـا منـيرًا في ظـلام السـنين المُنطويَّـة:

- التغيـير لا يـأتي فجائيًّـا، هـو عبـارة عـن تراكـم، عبـارة عـن انتفاضـات تدفعهـا شـعارات قويَّـة. أمـا الشـعارات الرنَّانـة والمترهلـة لـن تجعلنـا نتجشـأ فرحًـا ولـو عمَّرنـا مئـات السـنين.

لـم أنبـس ببنـت شـفة. كنـت أتابـع حديثـه بشـوق، ورأيـت في تحليلاتـه صوابًـا لا يُمكـن معارضتـه البتَّـة. اقتربـت السـيارة مـن محطَّـة المدينـة، نزلنـا والرَّجـل مـا زال يحـكي، وكأنَّـه يتمنَّى سـفرًا أطـول مـن هـذا حـتى لا يتوقَّـف عـن الحـكي. ودَّعتـه بابتسـامة نابعـة مـن قلـبٍ صـادق، متمنيًـا لـه حيـاةً هنيئـة. تابعـت السـير وأنـا أجـر حقيبـتي، فالتفـتُّ ورأيتـهُ يحـكي. إنَّـه، في نظـري، راويـة شـفاهي كبـير، وقطعًـا في نظـر النَّـاس لا يسـتطعمون الحـكي ولا يدركـون جوهـره، ثرثـارًا كبـيرًا، يتفـادون مقابلتـه، أو تقاسـم وسـائل النَّقـل معـه.

لم تأتِ...

كان قدومُكِ مرتقبًا

شَرِبتُ من كأسِ الخيبةِ وحدي.

غيابُكِ...

غيابُكِ مرآةُ المعاناة

طَيْفُكِ يتمترس

لا أراه...

لكِ وردةٌ، ولي سكينٌ مصلٌ للوريد

أجملُ هديَّة قُدِّمت لي؛

هو هذا الحبُّ الذي لا مَرَدَّ له.

* * *

كنتِ تبتسمين حتى أغاظني بياضُ أسنانك؛

الحلمُ يُغرّدُ فيكِ والحقيقةُ تعوي

أطوف بقلعتك المُحصّنة فلا أقتحِمها

أتقفَّى خُطاك خلسة، فلا أجدُ إلَّا سرابًا كان يناورُني،

سأكتبُ عنكِ شعرًا ولن أُحدثكِ نثرًا

أنتِ حيَّة تسعى في شوارع جسدي

أنتِ فرحةُ الأيام، وانتكاسة الأعوام

عيناكِ اللَّوزيَّتان تتلامحان ساهرتينِ،

شفاهك مرتع الحكي ونواة القصِّ.

* * *

حين تجرفنا سيولُ التيه

وحين يَشحُّ الكلام

أغازلُ الذاكرة

أرتكبُ الخطيئة

وأصعدُ السلم الموسيقي في نبرة صوتك

ألمس وجه السماء من أجلك.

لا أجدك،

فتتفجَّرُ بداخلي قنبلة الرثاء على قبرك.

سرابٌ أنتِ، تيهٌ أنتِ، عالمٌ بلا عوالِم؛

أنا وأنتِ حكايةٌ سَرديَّة لم تكتمِل.

الفهرس

في هجاءِ العِشق	٩
لكلِّ ألمٍ علَّة	١١
الصَّرخة الأخيرة	١٥
بقايا أحزان	٢١
بُويضةٌ عصيَّة	٣١
مُزحةُ الكِتابة	٣٥
ليلةُ الخفافيش	٤٧
الموتُ لا يُوجعُ سوى الأحياء	٥٩
ضغط الكتابة	٦٩
أحلامٌ تتفلسف	٧٣
سِفرُ الذَّاكرة	٨١

موظَّفٌ ينتظرُ أجرتهُ الأخيرة ٨٧
شجرةٌ بِلا ظل ٩٧
صهيلُ الذَّاكرة ١٠٧
سيِّدةُ القِطط ١١٥
دودةُ الورق ١٢١
خيبات الكِتابة ١٢٧
راوية شفاهي ١٣٣

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس
WH
™